نوبار دو مبادزه

Twitter: @alqareah
10.4.2015

زائر الفجر

@ketab_n

نوبار دومبادزه

زائـــر الفجـر

روايـــة

ترجمة: د. علي الحداد

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

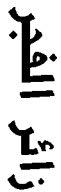

زائر الفجر

تأليف: نوبار دومبادزه

ترجمة: د. علي الحداد

حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر ©

للطباعة والنشر والتوزيع

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 ـ شارع الكويت

المنارة ـ بيروت ـ 2036 6308

لبنان ـ تلفاكس : 009611-740110

E-mail: alkhayal@inco.com.lb

الاخراج والتنفيذ دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2007

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية؛ بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

كانت الشمس أخذت تميل إلى الغروب. وأخذ الرعاة يعودون بقطعانهم، والفلاحون إلى منازلهم بعد يوم تعب وكد. النساء منهمكات بتحضير الطعام. العصافير تعود إلى أوكارها والوحوش تستعد للخروج من أوجارها.

عند الصباح يتلون الشفق بلون ذهبي، والشمس تتهادى مختالة في صعودها نحو كبد السماء. وعند الغروب يتلون باللون القرمزي، فيبدو وكأن الشمس حزينة لوداعها من كانت تشرق عليهم وتزرع الدفء في بيوتهم وتنير دروبهم.

كنت مستلقياً على العشب الأخضر في فناء المنزل، أراقب غروب الشمس حين غط سرب من عصفور الشوك على السياج المحيط بالحديقة غير آبه لوجودي، أخذ يغرد، أو قل يزغرد، وكأنه جوقة نسائية في عرس قروي. سمعت عمتي زغردة العصافير فخرجت من المنزل على رؤوس أصابع قدميها، وجلست على حافة السطيحة حاضنة ركبتيها بيديها وعيناها شاردتان في السماء حيناً وفي الزقاق المؤدي إلى المنزل حيناً آخر، وكأنها تنتظر قدوم أحد

Twitter: @alqareah

تأخر بقدومه. ولما لا فهي رغم أنها في العقد الثالث من العمر، ما تزال تبدو كصورة العذراء مريم التي يخبئها جدي رحمه الله في قعر صندوق خشبي حتى لا يراها أحد؟ أفنت عمتي ما مضى من عمرها وهي تعتني بي دون إهمال واجباتها كمدرسة للغة الإنكليزية في ثانوية القرية.

رويداً رويداً أخذ لون الشمس يتحول إلى نحاسي وهّاج وبدت الأشجار على رؤوس القمم، وكأنها معلقة في الفضاء، أو كأنها تتحدى الريح والعواصف. تعجبت لصمتها فأردت قطع هذا السكون.

ـ «أما أستحق تحية منكِ يا عمتي؟».

ـ «بلا حبيبي، لكني كنت شاردة الذهن. أُخذت بجمال منظر الغروب. أترى يا بني أنه ما من غروب يشبه الذي قبله أو الذي سيليه؟ لماذا يا تُرى؟».

ـ «إسألي أستاذ الجغرافيا» قلت هذا وعلى شفتي ابتسامة خبيثة.

ـ «ولماذا أستاذ الجغرافيا دون غيره يا ولد؟»

ـ «ولد؟ أما زلت ولداً بنظرك؟ سنتان وأبلغ الثامنة عشر وأُطلب إلى الخدمة العسكرية».

ـ «لا تخف» قالت عمتي «فأنت معفي من الخدمة العسكرية. أنت وحيد».

وقاطعتها «وحيد لا أخ ولا أخت، حتى لا أب ولا أم. لولاكِ

Twitter: @alqareah

لكنت كشجرة صفاف نبتت في صحراء».

ـ نظرت إلى وجه عمتي فرأيت ملامحه تتغير، ورأيت ابتسامة ترتسم على شفتيها. أشحت نظري نحو الزقاق فعرفت سر هذا التغير وتلك الإبتسامة «هذا هو أستاذ الجغرافيا إسأليه يا عمتي».

وصل داتيكو أستاذ الجغرافيا وحيانا. وقفت عمتي ومدت يدها لمصافحته، ودعته للدخول إلى المنزل. معاً دخلا، وبقيت أنا رغم إحساسي ببعض البرودة مستلقياً على العشب علّ عصافير الشوك تعود إلى زقزقتها وتغريدها. لكن عبثاً انتظرت، حتى صارت نسيمات الريح تلسع وجهي ببرودتها. فنهضت من مكاني ودخلت. كان داتيكو يتحدث إلى عمتي بصوت منخفض، ما إن رآني حتى توقف عن الكلام، وغرقا في صمت رهيب. كانت عمتي جالسة قرب الموقد تنظر إلى الجمرات المتوهجة حيناً وإلى زائرها حيناً آخر.

أخرج داتيكو كيس التبغ من جيبه ولف سيجارة وأشعلها من جمرات الموقد، ثم نظر إليّ وقال: « هل لي بكوب ماء يا سوسويا؟».

مددت يدي إلى طاولة خشبية بالقرب مني وناولته الإبريق، دون أن أتزحزح من مكاني. رمقني بنظرة غريبة فأحسست أنه يرغب بنهش لحمي «أريد ماءً بارداً يا سوسويا».

ـ «أتريد ماءً بارداً وتجلس قرب الموقد؟ سيكون لك ما تريد».

خرجت إلى المطبخ وعدت مسرعاً وبيدي قنينة ماء بارد مبردة طبيعيا، وكذلك جلبت معي منفضة وضعتها على الطاولة الخشبية إلى جانبه. بدا عليه الإندهاش وقال: «لماذا المنفضة؟

Twitter: @alqareah

يمكنني نفض سيجارتي في الموقد».

ـ «على سبيل الإحتياط.. قلت لنفسي لربما ستطلبها مني فيما بعد».

ضحكت عمتي بصمت ونظرت إليّ وكأنها تقول (كم أنت شقي يا سوسويا؟).

شرب داتيكو من غير رغبة بالشرب، ثم وضع الإبريق جانبا، وراح يحك جبينه وكأنه يبحث عن سبب لإخراجي من المنزل. لكنه لم يكن يدري أني لن أخرج إلا ميتا، أو مطروداً طالما هو عندنا. أحس أنه لا مجال للإختلاء بعمتي أكثر، فقام وخرج عابس الوجه مقطب الجبين قائلاً «أراكِ غداً يا كيتو».

تقدمت عمتي مني وأمسكتني من أذني «لماذا هذا التصرف يا ولدي؟ إنه لا يليق بك».

«لا أحبه يا عمتي. أرجوكِ لا تسأليني لماذا؟ أنا شخصياً لا أعرف لماذا» قلت هذا وخرجت للجلوس تحت شجرة الكرز حيث تعودت الجلوس أنا وخاتيا، رغم برودة الطقس. أمضيت وقتاً لا بأس به مسترسلاً بالتفكير «هل هما في حالة حب؟ لماذا أنت أناني إلى هذا الحد يا سوسويا؟ أوليست عمتك صبية مثلها مثل غيرها من الصبايا، أوليست إنسانة من لحم ودم لها مشاعر وأحاسيس؟» تساؤلات وتساؤلات إنما لا أجوبة عليها.

دخلت المنزل من جديد فلم أجد عمتي قرب الموقد فتوجهت إلى غرفة النوم لأجدها ممددة على السرير حزينة بعض الشيء.

Twitter: @alqareah

ـ «أنا آسف عمتي. هل أنتِ نائمة؟»

ـ لا لست نائمة. أتريد شيئا؟ لقد أعددت لك الطعام لليلة والفطور للغد.

ـ لا أريد شيئاً ولكن هل لي بسؤال؟

ـ إسأل ما تريد يا بني

ـ أتحبينه يا عمتي؟

ـ وما نفع الحب يا سوسويا؟ ومن ثم لماذا هذا السؤال؟

ـ لماذا لم تتزوجي بعد فأنتِ صبية حلوة وتجاوزتِ الثلاثين من العمر؟

ـ نمْ يا بني نم.

رحت أحدق بوجهها. بالفعل إنها جميلة. وأكثر ما يضفي عليها جمالاً هي مسحة البراءة على وجهها إنها تبدو كصورة مريم العذراء المخبئة من أيام جدي في قعر الصندوق الخشبي. فوق هذا كله فهي الفتاة الوحيدة في الضيعة التي تحمل إجازة جامعية، وتتمتع بشخصية قوية، مكنتها من فرض احترامها على الجميع حتى صارت صاحبة كلمة مسموعة.

تركتها تغفو وغفوت أنا أيضاً وغرقت في بحر من الأحلام. حلمتها عروساً ترتدي ثوب الزفاف، حلمت أن شباب الضيعة كلهم يتهافتون لطلب يدها وهي ترفض إكراماً لي.

باكراً، وكعادتي نهضت، إرتديت ثيابي وخرجت إلى الحديقة

Twitter: @alqareah

غير آبه ببرودة الطقس. كانت السماء صافية وأشعة الشمس أخذت تزرع الدفء. العصافير عادت إلى زغردتها، واختلطت زغردتها مع نقيق الضفادع. إنه فجر جديد يطل، ومعه يبدأ الرعاة بالهبوط بقطعانهم إلى المراعي، التلاميذ يقصدون المدرسة. كان صباحاً هادئاً وبعد قليل، بان قرص الشمس فوق التلال وهّاجا.

توجهت نحو ساحة الضيعة حيث تعود الشباب والكبار التجمع كل صباح ومساء أمام دكانها اليتيم. كان جميع من هناك بحالة ذهول. ألقيت التحية، فما من أحد رد عليّ بمثلها. ركبني العجب، فهذه ليست عادة أبناء بلدتنا. عدت أحدق بالوجوه، فرأيت وجوها عابسة وعيوناً جاحظة وآذاناً تحاول الإلتصاق بالراديو الموجود في الدكان.

«أيعقل هذا؟ أما يكفيه أنه اجتاح أوروبا؟ ماذا يريد منا هذا المجنون؟» قال العم غيراسيم.

تقدمت منه وألقيت عليه التحية مجدداً ودون انتظار أن يرد أو لا. تابعت قائلا: «من هو هذا المجنون يا عم غيراسيم؟».

رمقني بطرف عينيه دون أن يتفوه ببنت شفة. تركته وقصدت أسالو، علني أعرف سبب هذا الخوف المسيطر على الجميع ولربما أيضاً أعرف من هو ذاك المجنون الذي اجتاح أوروبا. وضع العم أسالو يده على كتفي وقال: «إنه هتلر يا سوسويا».

«وما به هتلر؟».

« أعلن الحرب علينا وكأن حربه مع أوروبا لا تكفيه».

Twitter: @alqareah

«ولكن ضيعتنا بعيدة جداً عن الحدود».

لم أرّ في حياتي هذا العدد من الوجوه المتجهمة إلا في المآتم.

«الحرب.. الحرب قد تكون أصغر الكلمات في اللغة لكنها أكثرها إخافة» قالت مارغريتا وأضافت «الحرب دمار وخراب. أطفال تتيتم، نساء تترمل، شباب يذهب إلى الجبهة ولا يعود، في الحرب قدر الإنسان إما أن يكون قاتلاً أو مقتولاً...».

تملكني رعب شديد. أحسست وكأني طفل صغير يجتاز المقبرة عند منتصف ليل حالك «ما هذا الذي تقوله الخالة مارغريتا؟» تقدمت وجلست القرفصاء قرب العم غيراسيم ووضعت يديّ على ركبتيه، وكأني أحتمي به. غمرني بيديه وقال: «لا تخف يا سوسويا، كما قلت ضعيتنا بعيدة جداً عن الحدود ومن ثم أنت وحيد و لم تبلغ الثامنة عشر من العمر».

«وماذا يعني هذا يا عم غيراسيم؟».

«يعني أنك لن تُستدعى إلى الخدمة العسكرية. عدْ إلى البيت يا ولدي وبلّغ تحياتي إلى عمتك كيتو».

عملت بما طلب مني العم غيراسيم. عند طرف الساحة الشمالي التقيت بالعم لوقا وعلى ظهره سلة كبيرة وهو يتصبب عرقاً. سألني أن أساعده على إنزال السلة عن ظهره ففعلت، وانطرح العم لوقا على العشب النابت إلى جانب الطريق. أخذ نفساً عميقاً وأشعل سيجارته «كيف حال عمتك يا سوسويا؟ عمتك أخت الرجال لها فضل كبير عليك» لم أجب بأية كلمة فنظر إليّ وفتح فمه وقال: «ما

Twitter: @alqareah

بكْ سوسويا تبدو خائفاً؟ لماذا يا ولدي؟ كلنا أهلك».

ـ من الحرب يا عم لوقا.

ـ ماذا؟ من الحرب؟ إننا نعيش بسلام لا نعتدي على أحد ولا أحد يعتدي علينا.

ـ كنا هكذا يا عم لوقا.

ـ أمجنون أنت؟

ـ لقد بدأت الحرب ضدنا.

رفع رأسه مندهشاً لما يسمع «ماذا تقول؟... أمتأكد أنت يا بُني؟ والحرب ضد من؟».

ـ نعم يا عم لوقا. أنا آتٍ للتو من الساحة وسمعتهم يقولون نقلاً عن الراديو.

ـ الحرب ضد من؟ ومن أعلنها؟

ـ الحرب ضد ألمانيا. لقد أعلن هتلر الحرب على الإتحاد السوفياتي».

«فعلاً إنه إنسان مجنون. أما يكفيه أنه اجتاح أوروبا؟» قال العم لوقا هذا وامتقع وجهه. لف سيجارة ثانية ومجها بنهم حتى غرق بنوبة سعال طويلة. كان يشد على يدي حتى أحسست أن أصابعي قد تصاب بالشلل، لكن سرعان ما أخذ السعال يخف، وعاد يتنفس طبيعياً ثم قال: «ساعدني على حمل السلة من جديد. سأعود إلى البيت فمن سيشتري تفاحاً بعد اليوم؟».

Twitter: @alqareah

لم تكد السلة تستقر على ظهره حتى مضى عائداً إلى بيته، وتابعت أنا طريقي كانت عمتي تصنع العجين وتصب الماء من القُلة على الطحين. وبدون مقدمات ولا من يحزنون «صباح الخير عمتي لقد أعلن هتلر الحرب على الإتحاد السوفياتي».

وقعت القِلة من يد عمتي وأخذت تحدق بي دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

«نعم.. نعم عمتي. سمعت هذا من الإذاعة والكل في الساحة مرعوبون والشباب خاصة».

«سوسويا.. أتعرف ماذا تقول؟» قالت هذا بصوت هو أشبه بصوت الصدى الذي يتردد في الوادي وتابعت «أتعرف معنى الحرب؟ أتعرف؟».

«نعم الحرب دمار وخراب، شباب تذهب ولا تعود».

قاطعتني «ومن قال لك هذا؟ من علمك هذا؟».

«الخالة مارغريتا..».

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

2

على غير عادتها أشرقت شمس اليوم التالي بتكاسل على ساحة الضيعة. أمام الدكان شباب يتجمعون، أمهات باكيات، زوجات يتأوهن وفتيات يخشين أن يفضح الدمع أمرهن وأسرارهن العاطفية. آباء يمجون سجائرهم بنهم، وعيونهم حائرة لا تعرف أين تستقر، على الأبناء الذاهبين إلى الحرب أم على النساء اللواتي قد يغمى عليهن. وكأن لا يكفي ما يعانون من خوف، خوف من كل شيء وعلى كل شيء. خوف على الأبناء ومن الأيام الآتية والأهم الأهم، الخوف على الوطن.

جلس العم غيراسيم على العشب النابت عند طرف الساحة وعيناه عالقتان بإبنة ابنه البالغة من العمر سنتان «رباه ما ذنب الطفولة حتى تحرم من حنان الأبوة؟ ولماذا؟ فقط من أجل أن يشبع هذا المجنون هتلر جوعه لرؤية الدم، في بولونيا، في هولندا، في فرنسا، وفي الإتحاد السوفياتي أيضاً؟».

أسالو كان يداعب رأس زوجته بيد وباليد الأخرى يدغدغ وجنتي ابنته والدمعة في عينيه ترفض أن تنهمر. كم هو قوي هذا

Twitter: @alqareah

الرجل؟ ليت هتلر يراه ليعرف على من يشن حربه؟

تقدم من والده، انحنى أمامه وقبّل يده «أرجوك يا والدي إعتنِ بعائلتي فقريباً جداً سنعود منتصرين. ثق سنعود بعد أن نهزم جيوش هتلر وندخل برلين». وتتدخل الخالة مارغريتا «رويدك بُني قبل أن ندخل برلين دعنا نفكر بحماية وطننا وكيف نتجنب الويلات الآتية».

لكن أسالو يصر على قوله «سأعود إليكِ يا عمة مارغريتا ورأس هتلر بيدي».

يحاول العم لوقا الواقف في منتصف الساحة لف سيجارة إلا أن يديه ترتجفان فلا يستطيع ذلك، عرضت عليه المساعدة فقبل شاكرا. ما أن انتهيت من لف سيجارته حتى مجها وكأنه يقبل زوجته ليلة الزفاف. نظر إليّ وقال: «ما رأيك يا سوسويا؟ عمتك مثقفة لا شك أخبرتك شيئا».

«لا يا عم لوقا. حين أخبرتها أمس وقعت القلة من يدها وأصيبت بمرض الصمت».

«وهل سيحلقون رؤوس الشباب؟».

نظرت إليه مستغرباً سؤاله وقلت في نفسي «أهذا هو همه؟».

«وهل سيعودون سريعاً يا سوسويا؟».

كان يحدثني وكأني شيخ جليل. إنه الخوف «من يدري يا عم لوقا؟ تقول الخالة مارغريتا أن على الإنسان في الحرب إما أن يكون قاتلاً أو مقتولا. أما العائدون فقلة منهم أبطال، والباقون هم من حالفهم الحظ وعادوا أحياء».

Twitter: @alqareah

«لا.. لا يا سوسويا، سيعودون. كلهم سيعودون».

كان العم لوقا يحادثني وكأني واحد من أترابه، متناسياً أن كل ما أعرفه عن الحرب هو ما تعلمته في المدرسة.

تركت العم مشغولاً بحلق رؤوس الشباب لأتحدث إلى أنزور الذي كان يمسك بيد خطيبته ماكفالا.

«وماذا عنك يا انزور؟ أستعود برأس هتلر أنت أيضاً؟».

ابتسم أنزور وربت على كتفي وقال: «قل لها ذلك. قل لها إني سأعود وأقيم لها عرساً لم تعرفه القرية من قبل، ولن تعرفه فيما بعد».

«معك حق كل الحق، فستعود بطلا. ومن يدري قد يأتي أحد من موسكو لحضور عرس البطل ومن ثم فهي تستحق أكثر من هذا. إنها ماكفالا يا أنزور».

نظرت إلى ماكفالا، فإذا هي مثل غيرها، شفاه ترتجف وخوف بادٍ في العيون. الكل في حالة ترقب وانتظار. كلهم ينتظرون الحافلات العسكرية التي ستقلهم ولا أحد يعرف إلى أين. يضحك أنزور ويقول «أنظر يا سوسويا كم من الفتيات سنترك لك. فاحذر أن يأتي إبن آوى ويأكلهن، وإلا سيكون عقابك شديداً بعد عودتنا».

ضحكت ملء فمي «أنا سأحميهن؟ وممن؟ من أبناء آوى؟ فكل أبناء آوى ذاهبون إلى الحرب، إذن لا خوف عليهن إطلاقاً. أليس كذلك يا ماكفالا؟».

Twitter: @alqareah

يقترب تاماز مني، يأخذني بين ذراعيه ويقبلني بصدق وحنان «انت تعرف كم أحبك يا سوسويا، إعتنِ بخاتيا إنها بعد اليوم، بحاجة إليك أكثر من أي يوم مضى. أين عمتك؟»

عمتي كانت واقفة بعيداً عن السياج جانب داتيكو تنظر إليه بعينين دامعتين. لأول مرة أرى الحزن على وجه عمتي. أين ابتسامتها التي يقول عنها أستاذ الأدب إنها أشبه بابتسامة الموناليزا؟ أين ذاك البريق الذي كان يشع من عينيها؟ إنه الخوف يغير كل شيء، يغير عادات الناس ويربك تصرفهم. تمسك عمتي يد داتيكو دون خجل وكأنها تخلت عن وقارها المعهود. فلم تعد خائفة مما سيقوله أبناء القرية عنها. اقتربت منها وطوقت خصرها بيدي وأحنيت رأسي إلى جسدها وكأني أقول «لا عليكِ يا عمتي، أنا ما أزال هنا، سأهتم بكِ سأخدمك لأعوض عليكِ بعضاً من حب داتيكو».

«أما تزال غاضباً مني؟» سألني داتيكو.

رمقته بنظرة حيرة تعبر عن التشوش الفكري الذي أنا فيه «ولماذا هذا السؤال والآن، الآن بالذات؟».

«حتى أذهب مرتاح البال».

«إذهب مرتاح البال يا داتيكو الوطن بحاجة إليك».

«إذن إعتنِ بعمتك يا سوسويا».

«إنها عمتي يا داتيكو فلا ضرورة أن يوصيني أحد الإعتناء بمن أعطاني من الحنان والحب ما لا يُعطى. إنها كل وجودي».

هممت أن أتركهما لوحدهما، إلا أن داتيكو أصر على بقائي

Twitter: @alqareah

وكذلك عمتي التي كانت ما تزال تمسك بيد داتيكو وتداعب شعر رأسي باليد الأخرى وكأنها، حتى في هذه اللحظة، لحظة وداع من تحب، تريد أن تقول لي «لا أحد يبعدني عنك يا سوسويا ولا أحد يحل محلك في قلبي».

في هذه الأثناء وصلت إلى الساحة شلة من شباب الضيعة المجاورة المطلوبين إلى الخدمة العسكرية، تتقدمهم فتاة شقراء بارعة الطول، بهية الطلة، رنانة الصوت تحمل بيدها علم الإتحاد السوفياتي مرفوعاً وتنشد:

حبيبي إلى الحرب ذاهب

وأنا معه ذاهبة

حبيبي لن يبقى حبيبي

إلا إذا أتاني برأس هتلر.

كانت هي تنشد والشباب ينشدون

«لعينيك يا حبيبتي،

لبيك حبيبتي،

رأس هتلر قريباً بين يديك».

وانتقلت العدوى إلى شباب ضيعتنا وصباياها فتشابكت الأيدي، وتحلق الجميع حول تلك الصبية. هي ترقص وتغني وتلوح بالعلم، وهم يضربون الأرض بأرجلهم. ولا أكذب إذا قلت أني شعرت بالأرض تهتز تحت نعالهم، وأدركت أن شعباً

Twitter: @alqareah

كهذا لن يقوى هتلر على قهره. كانوا يدبكون ويغنون:

يا هتلر نحن إليك آتون

إفتح لنا أبواب برلين

نحن السوفيات نحن السوفيات

لسنا بولندا ولا هولندا

لبيكِ حبيبتي لبيكِ

رأس هتلر سيكون بيد يديكِ.

حتى الآباء والأمهات والنساء نسوا ساعة الوداع، ودب الحماس فيهم. وبدلاً من دموع الحزن والأسى شعرت أن دموع الإعتزاز بأبنائهم هي التي ما تزال تبلل وجوههم.

وصلت الشاحنات العسكرية وتوقفت عند مدخل الساحة. ترجل منها ضابط برتبة عالية أمسك مكبر الصوت وراح يخطب بالمحتشدين:

«كأن الألمان لم يتعلموا دروساً من الحرب العالمية الأولى. يريدنا هتلر أن نركع عند نعليه. إن بلادنا تنشد السلام وليس الحرب، ولكننا نرفض الاستسلام. نحن نرفض أن يذهب شبابنا إلى ساحات المعارك وترك الحقول والبساتين والمعامل دون يد عاملة. لسنا نحن من أعلن الحرب، بل هو المتعجرف هتلر. تأكدوا يا أبناء الإتحاد السوفياتي أن لقاءنا المقبل سيكون في برلين حيث سنقيم حلقات الرقص احتفالاً بانتصار قوى السلام على

Twitter: @alqareah

قوى الحرب ولنقول للعالم كله الويل لمن يحاول الإعتداء علينا».

وما إن انتهى الضابط من كلامه حتى أخذ الشباب يتوجهون نحو الشاحنات رافعين أياديهم بعلامات النصر وهم يرددون

«لبيكِ حبيبتي لبيكِ،

رأس هتلر سيكون بين يديك».

نظرت إلى الضابط فرأيته يبكي ويخفي دموعه خلف يديه، وكأنه أحس بعظمة الشعب السوفياتي. أما أنا؟ فلست أدري لماذا تخليت عن خوفي وأحسست أني تافه ولا أستحق الجنسية السوفياتية. «لماذا لا يحق لي الدفاع عن وطني يا عمتي؟».

«يمكنك أن تدافع وأنت هنا يا سوسويا».

تحركت الشاحنات حاملة أبناءنا واخوتنا. على طول الطريق كان الأطفال والنساء يلوحون وهم يسمعون الفرقة الموسيقية تعزف نشيد النصر. سبق لي أن رأيت دموعاً في عيون أبناء ضيْعتي إنما ليس بهذا القدر. لأول مرة أرى عمتي تبكي، ولأول مرة أرى أزقة الضعيعة مقفرة. وجوه ووجوه. نساء يحملن أطفالهن ويبكين وفتيات يقفن عند طرف الساحة يتذكرن أحاديث الشباب عن الحب والغرام، يتذكرن وعود الشباب لهن. من يدري؟ قد لا يعودون وتبقى الوعود وعوداً.

حتى العصافير لم تغرد اليوم قبيل الغروب. أو لربما غردت إنما لم انتبه، كنت منشغلاً بعمتي ولا أدري كيف أخفف من حزنها أو أكفكف دموعها. عند المساء رقدت باكراً على سريرها.

Twitter: @alqareah

«عمتي أنائمة أنتِ؟».

«لا يا صغيري إنما أفكر. كثيرون رحلوا يا ولدي ولكن لا أحد يدري من سيعود».

«وهل سيرحل آخرون؟».

«نعم... كثيرون سيذهبون إلى جبهات القتال بعد، خاصة إذا طالت الحرب».

«وإذا لم يعد داتيكو يا عمتي؟».

«من يدري يا سوسويا؟».

«والمدرسة؟ هل ستقفل أبوابها؟».

«أبداً يا ولدي. إياك أن تفكر هكذا».

«عمتي أنا أحبك.. أحبك يا عمتي».

نهضت من فراشها وجلست قربي في السرير وغمرتني بحنانها حتى غفوت.

Twitter: @alqareah

3

رحلت الشاحنات ورحلت معها الحياة عن الضيعة، فلا شباب يتحلقون كل صباح أو مساء في الساحة، ولا الأزقة تضج تحت وقع أقدامهم، ولا الصبايا هن على مواعيد لقاء تحت ضوء القمر. فقط بضعة رجال طاعنين في السن، ونساء وأطفال.

غاب الشباب عن الضيعة فاشتاقت إلى قصص الحب والعشق، إلى حلقات الرقص، كما اشتاقت الحقول إلى السواعد السمر تهوي بالمعاول على الأرض البور فتحييها وتنبت خضرة وشجرا وتتدفق المياه. اشتاقت حقول الشاي إلى داتيكو وتاماز ونوبار، وكذلك بساتين الكرز والتفاح.

ملعونة هي الحرب، لم تخلي الضيع من شبابها وحسب، بل أخلت الدكاكين أيضاً من السكر والأرز والملح والزبدة، وحتى من علب الكبريت والصابون والقمح والكيروسين. نما العشب عند أطراف الحقول وفي وسطها، وارتاح حجر الرحى في الطاحونة ونفذ الحطب اليابس من البيوت فصارت المواقد تئن اشتياقاً للنار ولهيبها. يوماً بعد يوم كنت أتأكد من صدق قول الخالة مارغريتا

Twitter: @alqareah

(الحرب خراب ودمار). ذبلت الدوالي ونفذ الدقيق وارتاحت الغرابيل. حتى أن عمتي خبزت بالطحين الأسمر.

شهران مرا وكأنهما الدهر كله. لا رسائل ولا أخبار. لا أحد يعلم عند أي خط نار يتواجد أبناؤنا أو أبناء الضيعة المجاورة. وذات ليلة سمعنا صوت إمرأة تولول. إنه أول ضحايا الحرب الذي نعرف به. وهكذا بدأ اللباس الأسود يدخل البيوت بيتاً بعد بيت.

اضطرت النساء للعمل في المزارع والبساتين والحقول، وكذلك الأطفال والشيوخ. صرنا ننهض كل يوم باكرا، وكثيراً ما كانت روكسانا تمر بين البيوت وتزعق، هيا هبوا إلى العمل وإلا ستموتون جوعاً وستبور الأرض. كنا كلنا نخرج إلى العمل بما فينا خاتيا ابنة بيساريون التي لم تكن بحاجة لمن يناديها أو يوقظها. فقد تعودت النهوض باكراً، تلف شعرها على شكل ضفيرتين فوق رأسها، وتتجه نحو المزرعة تمر من أمام الجميع وتحييهم بصوت عالٍ دون النظر إليهم بل كانت تنظر في البعيد البعيد وتبتسم. كانت خاتيا تتوقف بحذر عند حفافي الأقنية وتلتقط أنفاسها وهي تقفز فوقها. كانت تساعد الجميع في أعمالهم، تقتلع العشب الضار النابت بين الذرة. وإن تعبت تنزوي عند حافة الجدول تحتضن ركبتيها بيديها الناعمتين، وتأخذ بالتحديق في الفضاء وكأن عينيها الزرقاوين يحاولان اختراق حدود اللامتناهي.

كانت خاتيا من جيلي تقريباً، وكنا معاً نذهب إلى المدرسة وعلى مقعد واحد نجلس. أنا كنت أنظر إلى اللوح الأسود وأقرأ ما يكتب عليه من معادلات حسابية أو كلمات أدب، إنما هي كانت لا تقرأ

Twitter: @alqareah

ولا تكتب شيئاً. فقط كانت تستمع إلى شروحات الأساتذة.

منذ ولادتها وهي لا تبصر، لكنها من أجمل بنات الضيعة وأذكاهن على الإطلاق. كنت أُعينها أحياناً ـ إن احتاجت للمساعدة ـ رغم عماها فهي تقوم بكل واجباتها المنزلية والمدرسية. تحب الكل والكل يحبها.

ذات صباح، وأشعة الشمس لم تلامس بيوتنا بعد، كنت ما أزال في سريري وكانت عمتي تخيط لي قميصاً، سمعت وقع أقدام على الشرفة الأمامية للمنزل. أصغيت السمع فإذا بصوت ينادي «عمة كيتو. عمة كيتو» إنه صوت خاتيا أعرفة من بين ملايين الأصوات. لم تسأل عمتي منْ المنادي بل دعتها للدخول إلى المنزل فوراً.

توقفت خاتيا عند العتبة وعلى وجهها علامات التعب «صباح الخير عمة كيتو. صباح الخير سوسويا أنت هنا أيضاً؟».

«صباح الخير خاتيا» قالت عمتي «ما الذي جاء بكِ باكراً ألم تنامي ليلة أمس؟».

«صدقيني لم أنمْ. هل سوسويا هنا معاك؟».

«نعم أنا هنا خاتيا» أجبت معتقداً أنها بحاجة إليّ لكنها قالت «إذن ليس بمقدوري إخبارك يا عمة كيتو» نظرت عمتي إليّ وطلبت مني الخروج فقلت لها أمراً وطاعة. طلبت من خاتيا أن تستدير لأني أرغب بارتداء البنطال فضحكت وقالت «ومما تستحي؟ مني أنا يا سوسويا؟».

خرجت من الغرفة ورحت أزرع أرض الحديقة ذهاباً وإياباً.

Twitter: @alqareah

تُرى ما الأمر؟ لا شك أن هناك سراً خطيراً لا تريدني خاتيا أن أعرفه. تسللت إلى الباب خلسة محاولاً استراق السمع، لكن صوت خاتيا أخافني «ابتعد عن الباب يا سوسويا أنا أسمع أنفاسك».

عدت إلى الحديقة والأفكار تتراكم في رأسي وأخيراً نفذ صبري، ما عدت أحتمل الإنتظار كي أعرف ما وراء زيارة خاتيا القبل صباحية هذه. فصعدت إلى الشرفة ودخلت الغرفة دون استئذان. كانت عمتي حانية الرأس لا تبدي أية حركة. نظرت إلى وجهها فإذا هو شاحب اللون، وبضعة دموع تحاول أن تبلل الخدين. خاتيا إلى جانبها تطوقها بذراعيها وتداعب شعرها من حين إلى آخر. رباه ما بهما؟

دون أن ترفع رأسها قالت عمتي «أتعرفين معنى الذي تقولينه يا خاتيا؟» لم تجب خاتيا بل شدتها إليها أكثر. ومضت عمتي تتساءل «ربما كنت مخطئة يا خاتيا؟».

«لا يمكن أن أخطىء يا عمة كيتو. إنه صوته نعم صوته».

«لا.. لا. ... لا يمكنني التصديق. غير معقول».

«صدقيني إنه هو. كنت خارجة من الطاحونة باتجاه التل، وهناك تحت شجرة السنديان جلست لأستريح فإذا بصوت ينادي مَن هناك. أجبته أنا خاتيا. فقال أما تضجرين في الليالي؟ ولماذا أنتِ وحدك هنا؟».

«وارتعش صوت خاتيا وصمتت».

«وماذا بعد يا خاتيا لا تصمتي».

Twitter: @alqareah

«أجبته الليل والنهار عندي سواء ودعوته بإسمه فقال: «أمجنونة أنتِ؟ كيف يمكن أن يكون هذا؟ أنا تاراسي».

«ولماذا لا يكون تاراسي؟».

«وكيف يكون تاراسي؟ وتاراسي طريح الفراش منذ أكثر من أسبوع؟ واليوم كنت عنده قبل أن آتي إليك».

«ثم ماذا يا خاتيا؟».

«تاراسي كما أخبرتك طريح الفراش».

«ربما يا خاتيا؟ ربما؟».

«صدقيني عمة كيتو لا ضرورة إلى «ربما». سيأتي إليكِ هو بنفسه وتتأكدين من أني لا أخطىء. .. أنا خاتيا».

قالت هذا وانسحبت من الغرفة بهدوء، تاركة عمتي في وجوم مطلق وكأن الطير حط على رأسها. راحت تتحرك من دون وعي لا تعرف ماذا تفعل، كأنها فقدت أغلى ما في الوجود. إذا فتحت كتاباً لتقرأ تتجمد عيناها على صفحة واحدة، يداها جامدتان، قلبها ينبض بشكل غير طبيعي. إن ناديتها لا تسمع، تكون ذاهبة إلى المطبخ لإحضار الطعام فتدخل غرفة النوم.

في الليل لا تنام. الخوف بادٍ على حركاتها وتصرفاتها. يكفي أن يمر كلب قرب المنزل حتى تهب مذعورة. صارت تنحل يوماً بعد يوم. اختفى ذاك الجمال وغابت الإبتسامة عن شفتيها. تقدمت منها ذات صباح ونحن نرتشف القهوة، أو قل أرتشف القهوة وحدي،

Twitter: @alqareah

ضممتها إليّ، أحنيت رأسها على صدري «عمتي من لكِ غيري؟ ومن لي غيرك؟ قولي لي ما الذي أصابك؟ لماذا هذا الوجوم؟ أين أضعتِ لسانك يا عمتي؟».

تحدثت وتحدثت، ولكن بدلاً من أن تتكلم، أخذت دموعها تنهمر على خديها ولا تحاول مسحها. أخيراً قررت الذهاب إلى خاتيا. لا بد لي أن أعرف ما الذي دار بينهما. هي عمتي وأمي وأبي وكل وجودي. وعليّ أن أفعل شيئاً لمساعدتها.

كان بيساريون والد خاتيا يحاول قطع جذع سنديان ليجعل منه حطباً للموقد، وخاتيا كعادتها تجلس تحت الشجرة بعيدة نوعاً ما عنه. حييته وجلست قربه دون إلقاء التحية على خاتيا لكنها انتبهت لوجودي وتساءلت «وأنا لا أستحق التحية يا سوسويا؟».

«بلا تستحقين».

«إذن لماذا أنت غاضب مني تعال واجلس بقربي». نهضت من مكاني وذهبت للجلوس قربها في حين حمل العم بيساريون الحطب ودخل المنزل.

«أين الشمس الآن يا سوسويا؟».

«هناك فوق شجرة الكرز عند زاوية الحديقة».

«أحقاً ما تقول؟ إنها هناك فوق شجرة الكرز عند زاوية الحديقة؟».

«نعم خاتيا ولماذا أكذب عليكِ؟».

Twitter: @alqareah

«إن كانت كذلك فهذا يعني أني أراها». أحسست أنها تقول ذلك بفرح عظيم.

«شكراً يا سوسويا. إن الشمس فوق شجرة الكرز». ونادت أباها «أبي.. أبي ماذا قال الطبيب يا أبي؟».

ورد بيساريون من الداخل «وكم مرة تحبين أن أقول ماذا قال؟».

«أرجوك أبي قلْ لسوسويا ليس لي أنا».

«حسناً يا ابنتي قال الطبيب إن رأت الشمس فهذا يعني أن هناك إمكانية الشفاء».

«أسمعت يا سوسويا؟».

«نعم سمعت إنما أرجوكِ ما الذي أخبرته لعمتي؟ إنها لم تعد عمتي التي أعرفها».

لم تتكلم خاتيا، وكأني أُحدث أصناماً. نزلت من مكانها ومرت أمامي دون دعوتي للخروج، واتجهت نحو الطريق العام. تبعتها بسرعة ومشينا معاً باتجاه بيتنا. أنا أتكلم وهي لم تعد عمياء وحسب، بل وخرساء أيضا. حتى وصلنا حديقة المنزل فإذا بها تصرخ «عمة كيتو. عمة كيتو أين أنتِ؟».

خرجت عمتي وما إن رأت خاتيا حتى ازداد وجهها شحوباً، وبدت وكأنها مذعورة «نعم هل من جديد يا خاتيا؟».

«ولو عمة كيتو هذه أنا خاتيا. أهكذا آتي إليكِ فلا تقبلينني؟».

Twitter: @alqareah

«ما الذي أتى بكِ الآن؟». قالت عمتي هذا دون التقدم من خاتيا لتقبيلها.

«لا شيء كنت وحدي فضجرت فأتيت فلربما أقدم لكِ المساعدة. بتنقية الذرة مثلا».

«هذا لو كان ما يزال عندنا ذرة؟ ومن ثم أين التقيتِ بهذا الذي معكْ، وأشارت إليّ. نظرت إلى عمتي نظرة عتاب. لماذا تعتني هكذا؟ كنت أرغب بالرد عليها لكن خاتيا أسرعت لتقول «عندنا الكثير من الذرة يا عمة كيتو. أنا أتيت الآن بطلب من أبي لأقول لكِ إن احتجتِ ذرة فلا تترددي بطلبها».

ما إن سمعت خاتيا تقول هذا حتى كدت أفقد صوابي. أيعقل أن تكذب خاتيا وبهذا الأسلوب المقنع؟ فقلت بيني وبين نفسي «لا شك هناك أمرٌ خطير بينهما، أقطع رأسي إن لم يكن كذلك».

تقدمت خاتيا إلى قرب عمتي «أبي بنفسه سيأتي مساءً بالذرة إليكِ. على فكرة عمة كيتو تأكدت من أمر مهم» وقاطعتها عمتي بلهفة «ماذا تقصدين؟».

«لا شيء عمة كيتو ولكن تأكدت أني كنت مخطئة في تحديد صاحب الصوت».

«ماذا؟؟؟؟ ماذا؟؟». قالت عمتي.

«خانني السمع يا عمة».

نظرت عمتي بارتياب إليها وهي بين المصدق لما تسمع وغير مصدقة «خاتيا أنا العمة كيتو فلا تكذبي عليّ. أفعلاً هذا؟».

Twitter: @alqareah

حدقت أنا بخاتيا وبعمتي. بدوت وكأني أصم في عرس. يرى ولا يسمع أصوات الزغاريد والغناء.

«إني أقول الحقيقة عمة كيتو، منذ تلك الليلة وأنا أحاول التأكد ولكني تأكدت كنت مخطئة ولهذا أنا هنا».

«إقسمي برحمة أمكِ أنكِ تقولين الحقيقة».

«بمن؟ بأمي عمة كيتو؟».

«أقسمي برحمة أمك يا خاتي».

صمتت خاتيا واختفت الإبتسامة عن شفتيها. بدت وكأنها أصيبت بذعر وخوف. أحسست أن قلبها يكاد يخرج من بين ضلوعها. ولكن عمتي ما بها حتى تطلب منها مثل هذا القسم. ثانية رددت خاتيا «بمن؟».

«بقبر أمكِ وبرحمتها يا خاتيا».

زمت خاتيا شفتيها «أقسم بقبر أمي يا عمة كيتو».

لأول مرة بحياتي أسمع خاتيا تقسم بقبر أمها. ولأول مرة أراها بهذه الحالة النفسية. أحس أن عذاباً داخلياً يكاد يجعلها تنفجر بكاء.

«أما قلت يا حبيبتي؟ جلّ منا من لا يخطىء. كدت تقتليننى يا خاتيا. أم أنكِ تريدين هذا ليبقى سوسويا لكِ وحدك؟» وتقدمت عمتي من خاتيا، أخذتها بين ذراعيها وأشبعتها تقبيلاً وعناقاً حتى شعرت أنا بالغيرة. «أرحتني أرحتني يا خاتيا».

Twitter: @alqareah

«والله... عاد لسان عمتي ليتحرك داخل فمها يا خاتيا. كنت السبب في إضاعته وأنت السبب في عودته».

تراجعت خاتيا قليلاً نحو الوراء ووقفت بيني وبين عمتي وعلى شفتيها ابتسامة باهتة لا تعبر إلا عن ألم وحزن.

Twitter: @alqareah

4

مرت الأيام والأسابيع، لا بل حتى الشهور، وما من أحد استلم رسالة. ذات مساء والشمس تميل إلى الغروب خلف التلال والهضاب، كنا شلة عائدة من العمل حين رأينا ساعي البريد يتقدم نحونا «عافاكن الله أيتها النسوة». قال، وكأن لا رجل معهن، لا أنا ولا العم غيراسيم وآخرون.

«وماذا جلبت لنا». تساءلت روكسانا وهي تظلل عينيها بكفيها إتقاءً لنور الشمس. لم يتمكن ساعي البريد من تغيير عادته ولا التخلي عن مرحه ومزاحه فقال: «جبنة وسكراً وطحيناً وكافيارا وبطرخاً وسمك الأستراخينا والكيروسين. أما الصابون فقد عجزت عن حمله فلربما غداً أو بعد غد آتي به. أما الآن فهاكم الجريدة دعوا إبن آوى يأتي لاستلامها».

أدركت أني أنا المعني. وصاحت روكسانا «والرسائل؟».

«إنها في الطريق ولا أحد يعلم متى تصل».

أسرعت في جلب الجريدة فيما تابع ساعي البريد طريقه وشيعته النسوة بالضحك.

Twitter: @alqareah

تحلق الجميع حولي وطلبوا مني القراءة. صدقوني إنه لو كان ما قاله ساعي البريد حقيقة عن السكر والزبدة وما شابه، لما كان الذين حولي مسرورين هكذا «إقرأ يا سوسويا لو كانت عمتك هنا لأنهت قراءة الجريدة».

«إسمعوا هذا بلاغ صادر عن رئاسة الأركان».

وصاح غيراسيم «وماذا يقول البلاغ هل وصلت جيوشنا إلى حدود برلين أم بعد؟».

«يقول البلاغ يا عم غيراسيم، إنه بعد معارك ضارية وطاحنة اضطرت قواتنا إلى التراجع عن مدن كذا وكذا» ورحت أعدد المدن المذكورة في البلاغ. نظرت إلى عيون الجميع فوجدتها دامعة والحزن بادياً على وجوههم.

«يا له من ابن كلب؟». قال بيساريون واستطرد يقول «إقرأ جيداً تراجعت قواتنا أم دخلت؟ انتبه يا سوسويا».

«لا عم بيساريون تراجعت و لم تدخل».

مد بيساريون يده ومزق قطعة من الجريدة بعصبية متناهية ولف سيجارته بما مزق.

«هناك كثيرون معه. فرنسا، النسما وتلك؟؟؟ تلك... ما اسمها تلك الملعونة؟ إنها قريبة من فرنسا ما اسمها يا سوسويا؟».

«أتقصد بلجيكا يا عم غيراسيم؟».

«نعم بلجيكا... بلجيكا. ونحن من معنا؟ لا أحد». قال

Twitter: @alqareah

غيراسيم والغضب بادٍ في لهجته.

«نحن لسنا بحاجة لأحد». قال لوقا.

«ومن نحن؟».

«نحن أنا وأنت وسوسويا وخاتيا العمياء وهؤلاء النسوة والأطفال». قال لوقا.

تدخلت كاتيا «يوم الأحد كنت في السوق».

وقاطعتها آغاتي «وماذا أيضاً؟ كانت السوق ملأى بالسكر والزبدة والحليب والصابون؟».

صاح بها العم غيراسيم «على مهلك يا امرأة النحس أنت. دعيها تتكلم. أم أن الغيرة نهشتك لماذا لم تكوني معاها؟».

وتابعت كاتيا تقول «قال رجل، يبدو أن هتلر ابتكر سلاحاً جديداً يحرق كل شيء عن بكرة أبية في دائرة قطرها عشرة أميال».

وتساءلت مارغريتا «ومن هو هذا العبقري الذي قال هذا؟»؟

«إنه أحد وزراء هتلر».

«وما اسمه هذا الوزير؟».

«غولز...».

«من؟... غوبلز؟». قالت مارغريتا «عساي أحمل نعش ابن العاهرة هذا. وما إسم هذا السلاح؟».

«نسيت. إنه إسم ألماني ملعون مثل اسم هتلر».

Twitter: @alqareah

«ربما هو ريبنتروب».

«عسى الله يقطع نسله عن بكرة أبية». قالت كاتيا وتابعت «قال أيضاً إنه يحمل لنا الخبز الأبيض والزبدة، ووعد ألا يمس الشيوخ والنساء ولا الأطفال. إنما همهم القضاء على الشيوعية».

وصاحت روكسانا بوجه كاتيا «وأنت ما قلت؟ أرجو ألا تكوني قد خرست وصدقت ما قال ورحت تحلمين بالخبز الأبيض وما إلى ذلك؟».

«لمن لريبنتروب؟».

«لريبنتروب يا خنزيرة؟ بل لذلك الخنزير مثلك الذي كان يقول هذا الكلام وأنت تصغين إليه. أما تدركين أن حرب الأعصاب أهم وأخطر من حرب البنادق؟».

«وماذا كان بوسعي أن أفعل؟ كان هناك كثيرون يصغون إليه. وحين قال أن هتلر سيهرب كالكلب المسعور تقدم الجميع منه وغمروه وراحوا يهتفون».

«قولي الحقيقة أين كنت؟ وإلا سأقطع لسانك».

«قلت لك. في السوق وجاء هذا الرجل وبدأ يخطب بالناس».

«أمعقول هذا الذي تقولينه يا كاتيا؟ سوفياتي يقول: «هتلر وعدنا بالخبز الأبيض وما إلى ذلك؟».

«من تكونين بلهاء؟ أم غبية؟». قالت روكسانا:

«كفى صراخاً كاتيا إمرأة ذكية. ماذا تعتقدين يا كاتيا؟».

Twitter: @alqareah

«أحوالنا الآن ليست على ما يرام. فعلاً نحن في ورطة. لم نكن مستعدين للحرب. لأننا لم نفكر أن هتلر سيعلنها علينا. ولكن الشتاء آتٍ وسيصيبه ما أصاب نابليون».

لم يقتنع لوقا بهذا القول «أتعنين أنهم في الشتاء سيتجمدون؟».

«المسألة أن هتلر غير مستعد للشتاء».

«وكيف عرفت ذلك؟ يا وزيرة الخارجية؟». قال لوقا.

«كل كلامه يقول، إنهم حتى الخريف يكون الألمان قد قضوا على الإتحاد السوفياتي. وهذا يعني أنه غير مستعد للشتاء».

«أليس بإمكانه أن يستعد اليوم؟».

«الإستعداد للحروب ليس بهذه السهولة. تأخر الوقت كثيرا».

«وإذا وصل قبل الشتاء؟ ماذا ستفعلين يا وزيرة الخارجية؟».

«علينا ألا نسمح له بذلك. علينا المقاومة بكل ما أوتينا من قوة».

«من؟ أنا وأنت؟».

«نعم أنا وأنت».

«إذن تنوين وقف الزحف الألماني؟ أمجنونة أنت؟ إنه يحتل خمس مدن يومياً، وأنتِ تنوين وقفه؟».

«نعم أنا وأنت وكل الشرفاء في هذا الوطن علينا فعل المستحيل».

ابتسم لوقا ابتسامة ساخرة ثم هز رأسه وهو

Twitter: @alqareah

يقول: «اوقفيه. حاولي ذلك».

نظرت روكسانا إلى لوقا نظرة غضب «كفّ عن هذا الحديث يا جبان، ما بالك وكأنك تشجع هتلر للوصول إلى هنا اليوم قبل غد. لو كنا كلنا مثلك فتأكد أن هتلر سيحتل عشر مدن يومياً وليس خمساً فقط».

«ما بالك روكسانا؟ أحببت مناقشة الأمر بروية وتعقل، فلماذا هجمتِ عليّ ككلبة مسعورة؟».

«حسناً إذن سأريك منْ الكلب يا ابن الكلب سأقتلع لسانك من فمك يا لوقا».

«فعلاً إنكِ مجنونة.. أما يستطيع الإنسان التحدث إليكِ إلا بالزعيق والنعيق؟» قال هذا ومزق قطعة أخرى من الجريدة، ولف بها سيجارته والتفت نحو مارغريتا متسائلاً «هل تلقيت رسالة من زوجك؟».

«نعم أول من أمس».

«وماذا يقول؟».

«يقول إنه اشتاق إليها. ماذا يقول الرجل لزوجته يا أهبل النحس؟». قالت روكسانا.

«يقول إنهم بخير حتى الآن ويطلب مني عدم القلق إذا تأخرت الرسائل لأنهم في الخنادق».

«وفي إية خنادق أما قال؟».

Twitter: @alqareah

وانفجر غضب روكسانا «أمعقول أن يسمحوا له القول بأي خندق هو؟ ما بالك اليوم يا لوقا؟ لا تبدو كالأهبل بل الأهبل، يبدو مثلك؟».

«وتابعت مارغريتا تقول «طلب مني أن أسمي المولود، إذا كان ذكراً، باسمه».

فقال بيساريون «إفعلي ما يطلب منك زوجك يا مرغريتا. فالزوجة الصالحة هي التي تطيع زوجها».

تنهد لوقا ومسح دمعة عن خده. تقدمت روكسانا منه ووضعت يدها على كتفه «لا تخف يا لوقا فغداً أو بعد غد تصلك رسالة من ابنك تأكد من ذلك. أما سمعت ماذا يقول زوج مارغريتا؟».

«ومتى يا روكسانا؟ متى؟».

«الكل تسلموا رسائل من أولادهم وأنت ستتسلم أيضا».

وتدخلت أنا في الموضوع «إسمع عم لوقا أما سمعت ساعي البريد: غداً سيأتي بالرسائل».

«وماذ لو وصل هتلر قبل الرسائل؟».

«إسمع لوقا». قال بيساريون وتابع «إن الحرب ليست بهذه السهولة وليست بالنظارات. نحن هنا نبعد آلاف الكيلومترات عن خط النار، نحن هنا على رأس هذا التل نكثر الحديث كيفما نشاء، وحدهم الذين هم هناك على خط النار يعرفون ماذا يجري على الأرض. ليس ابن لوقا وحده هناك ولا ابن غيراسيم أو تامار أو....

Twitter: @alqareah

أو. .. كثيرون غيرهم وكثيرون، من جميع جمهوريات الإتحاد السوفياتي، هم هناك على خط النار يدافعون عن الوطن. وهنا كم من سوسويا وخاتيا ومارغريتا، كم من كاتيا وغيراسيم وغيرهم مستعدون للموت حتى لا نسمح لهذا الكلب هتلر أن يدنس أرضنا؟

تنهد بيساريون ونهض حتى انتصبت قامته، وأخذ يجيل النظر جنوباً وشمالاً، شرقاً وغرباً، ثم بسط يمناه نحو السهل وقال: «انظروا إلى هذه الأرض الواسعة، هل بمقدور النظر أن يحدها؟ هناك تلك الجبال وخلفها جبال وجبال وسهول خلفها سهول وسهول، هناك قرى، بلدات ومدن. وفي كل بيت هناك رجال وشباب، هناك نساء وصبايا مستعدون للتضحية. حتى لوقا الذي يتكلم انطلاقاً من لهفته لرؤية وحيده، حتى لوقا هذا، مستعد للتضحية أيضا» ونظر نحو لوقا وقال «أليس كذلك يا لوقا؟».

«ويحكم يا رفاق». قال لوقا «لا أنكر أني أتألم لعدم تسلمي أية رسالة من ولدي، وكذلك تؤلمني فكرة فقدانه، إنما الذي يؤلمني أكثر هو فكرة فقداني الوطن. إبني قد يولد طفل آخر يحل محله في الحياة، أما الوطن فلا. صدقوني، أنا ابن الستين عاماً مستعد لأكون إلى جانب ابني على خط النار».

«أرأيتم؟». قال بيساريون «أرأيتم؟».

وتدخلت عمتي «هناك فرق كبير بين قواتنا والجيوش الغازية.. نحن هنا على أرضنا ندافع عنها، عن أولادنا عن أعراضنا وكرامتنا، عن مدن بنينا بيوتها، ومنشآتٍ أسسناها بعرق الجبين. الجندي

Twitter: @alqareah

السوفياتي لا يقاتل الآن ليبقى حياً وحده فقط، بل ليبقي زوجته وحبيبته وعائلته أحياء أيضاً، ليُبعد الخراب عن مدينته أو بلدته أو بيته، أما ذاك المتعجرف هتلر فسيجد جنوده أنفسهم في مأزق التساؤل «لماذا نحارب بعيدين عن أرضنا؟» وكلما اتسع احتلاله سيجد نفسه أمام مأزق جديد. سيضطر لإرسال المزيد من الجند للحفاظ على الأرض المحتلة، وعليه تأمين خطوط الإمداد العسكري والحياتي لهؤلاء الجنود. وثقوا قادته يدركون أن الوقت ليس لصالحهم يخافون من اقتراب موسم الشتاء. لأن هؤلاء درسوا التاريخ العسكري ويعرفون ماذا حل بنابليون وجيوشه. من هنا لا خوف أبداً. نعم سنفقد الكثير الكثير من شبابنا، لكننا في النهاية سننتصر. وسيصدق أولئك الذين أنشدوا وهم يصعدون الشاحنات قائلين «لبيكِ حبيبتي لبيكِ رأس هتلر سيكون بين يديك».

كانت عمتي تتكلم وأنا أتطلع إلى ذلك السهل الممتد أمام ناظري. حاولت أن أحده بنظري لكني عجزت. هذا نهر سوبسا يخترقة ويحمل معه تنهدات العشاق الجالسين على ضفافه. ها هي الشمس ما تزال تترنح في طريقها نحو الغروب. تأكدت بعد ما سمعته، وما رأيته أننا شعب يستحيل أن يقهر. قد نخسر معارك عديدة، لكن المعركة الفصل ستكون لنا نحن، وليس لغيرنا.

خيّم صمت رهيب على الجميع. كلهم يجيل النظر يمنةً ويسرى. كلهم يفكرون ـ على ما أعتقد على الأقل ـ كما أفكر أنا وكما تفكر خاتيا الجالسة إلى قربي وعلى شفتيها ابتسامة وضاءة، وفي قلبها حسرة لو بإمكانها رؤية السهل والجبال التي تحده.

Twitter: @alqareah

أكملت الشمس طريقها نحو ما وراء الجبال. وعاد الجيمع إلى منازلهم. أشعلوا المواقد وهم يترقبون أخباراً سارة وأخرى حزينة. إنها الحرب، إنها الحرب.

وقبيل منتصف الليل سمعنا صوت بكاء ونحيب آتٍ من الجهة الشمالية للضيعة، خرجنا أنا وعمتي نستطلع الخبر، وكثيرون خرجوا مثلنا. وفي الطريق رأيت العم غيراسيم عائداً إلى الساحة فسألته عمتي عن السبب فقال: لقد صدق حدس لوقا يا كيتو.

مسكين لوقا ومسكين ابنه ابن الثانية والعشرين ربيعاً. إنه أول شهيد من ضيعتنا.

Twitter: @alqareah

5

طالت الحرب وانقضت أشهر حزيران وتموز وآب وأيلول. إننا نستعد لبداية عام دراسي جديد. منا من يفرح ومنا من يلعن الساعة. تعودنا أنا وخاتيا أن نجلس قرب بعضنا على ذات المقعد. منذ الصف الأول ونحن معاً على مقعد واحد، ولا شيء سيتغير هذا العام إلا بعض أفراد الهيئة التعليمية سيغلب عليها الطابع الأنثوي. الشباب هناك على خطوط الدفاع، لكن الحياة ستستمر أبينا أم شئنا، لذا حلت المعلمات محل المعلمين.

وحده معلم الفنون القتالية كان رجلا، لكنه بدا واضحاً، أنه لم يدخل أي صف تعليمي من قبل. وأنه يتمنى لو يكون هناك، على جبهات القتال. لست أدري لماذا انتابني هذا الإحساس. رأيت في عينيه دموعاً تأبى أن تنهمر. أو قل يأبى هو أن يراها الآخرون. إنه الإباء يمنعه من ذلك. بدأ حديثه عن ضرورة مواجهتنا للفاشية النازية، وشدد أن الدولة كانت وما تزال تتمنى لو تكون منصرفة للفعل التنموي، بدلاً من خوض معارك حربية لا تجلب الدمار المادي وحسب، لا تدمر الحجر فقط، بل الإنسان أيضاً وتعيق عملية بناء الدولة ومؤسساتها. إنها تحرم الصبايا من الحلم بلقاء الحبيب والأم من احتضان ولدها والطفل من

Twitter: @alqareah

العيش تحت كنف أبيه وما إلى ذلك من تعابير، عن أهمية السلم والعيش بسلام مع الذات ومع الآخرين إنما ليس على حساب الكرامة الوطنية.

أول كلامه كان تعريفاً عن نفسه وعن مهمته. إستدار نحو الحائط وعلق عليه ملصقاً مكتوباً عليه «الموت للفاشية». سألتني خاتيا ماذا فعل؟ فقلت لها فقالت: «أو لم يكن بمقدوره قول هذا دون لصقه على الحائط؟».

فوقفت ورددت على أستاذ الفن القتالي سؤال خاتيا فقال «إن قلتها سأقولها مرة واحدة، بينما الآن هي أمامكم ترونها طيلة الوقت». ثم أردف القول «إن حصة تعلم فن القتال تتطلب انضباطاً فوق العادة». لكن إيفان أحب التعليق فقال: «كل الحصص تتطلب الإنضباط» وغرقنا في موجة ضحك دون أن ندري لماذا نفعل ذلك. وما الذي أضحكنا في كلامه. بدا أن الأستاذ أخذ الغضب يتملكه لكنه كان صبوراً.

بعد خروجه جاء دور عمتي. لم تكن هي هي وكأن ما أكدته خاتيا من إختلاط الصوت عليها لم يقنعها تماما، بل ما تزال هناك وساوس وهواجس في رأسها. كذلك بدلاً من تعليمنا اللغة الإنكليزية راحت تحدثنا عن الحرب ومشاكلها، وكيف اضطررنا لخوضها مرغمين، لا حباً بها، بل دفاعاً عن كرامتنا.

«الويل لمن يكون خائناً لوطنه». شددت عمتي على هذه الجملة وأردفت تقول «إن من يحاول زرع الإشاعات التي تؤدي إلى زرع الخوف في النفوس هو أشبه بالخائن، لا بل أخطر منه».

همست خاتيا بأذني «ما بها عمتك اليوم يا سوسويا؟ أهي مدرسة للغة الإنكليزية أو لفن القتال العسكري؟».

Twitter: @alqareah

«لست أدري يا خاتيا. يبدو واضحاً أنها ليست بخير».

«سامحني الله على ما فعلت». قالت خاتيا.

«وماذا فعلتِ يا خاتيا؟ منذ ذلك الصباح وعمتي ليست عمتي».

«لا عليك فالأيام كفيلة بإعادتها إلى ما كانت عليه».

عند المساء كنا نجلس، أنا وعمتي، قرب الموقد نشوي الكستناء. عيناها زائغتان والخوف بادٍ على محياها. أين تلك الإبتسامة الدائمة الإرتسام على شفتيها؟ أهي الحرب أفرغت الدكاكين من المواد الغذائية وأبعدت الإبتسامة عن شفتي عمتي؟».

كان الليل يكاد ينتهي. بصيص ضوء خافت يحاول التسلل من ثقوب النوافذ إلى الغرفة. سمعت على الشرفة وقع أقدام أيقظني كما أيقظ عمتي التي قفزت مرعوبة وجاءت إليّ طوقتني بيديها وكأنها تريد حمايتي من أذى مرتقب. لكني أحسست ببرودة يديها وليس بالدفء الذي تعودته.

صاحت عمتي «من هناك؟».

«أنا... إفتحي الباب يا كيتو».

«ومن تكون أنت حتى أفتح لك الباب؟».

«أنسيتني أنا داتيكو؟ أنسيتني بهذه السرعة؟».

أحسست أن عمتي تكاد تنهار. وأمسكت رأسها بيديها. شفتاها ترتجفان لا بل كل جسدها كان يرتجف.

«كيتو إفتحي الباب» وراح يهز المصراع بقوة أشد من الأول.

Twitter: @alqareah

استرجعت عمتي وعيها وأخذت تحدق بالباب الذي يهتز تحت وطأة ضغط داتيكو عليه محاولاً فتحه «أنا داتيكو يا كيتو».

«ومن يكون داتيكو هذا؟ داتيكو الذي أعرفه يجب أن يكون هناك، على خط النار يدافع عن كرامتي، لا أن يأتيني قبيل بزوغ الفجر ليرعبني ويعلن عن خيانته؟».

«إفتحي الباب وإلا حطمته».

نهضت من مكاني وفتحت الباب وعدت للجلوس إلى جانب عمتي. دخل داتيكو أشعث الشعر، رث الثياب، منهك القوى وعلى خصره مسدس وبيده بندقية «مرحباً كيف حالك يا كيتو؟ أما اشتقتِ إليّ؟».

كان يتكلم وكأنه عائد برأس هتلر، أو كأن الحرب انتهت وعاد إبن لوقا وابن غراسيم وتاماز ونوبار وغيرهم الكثير. حاول الإقتراب لمصافحة عمتي لكنها صرخت في وجهه «قف مكانك وإياك أن تقترب».

«ما بكِ كيتو؟ أما تذكرين أني قلت لك ساعة الوداع (قريباً سأعود إليكِ؟)».

«بلى أذكر ذلك، ولكن كنت ساعتئذٍ تردد لبيكِ لبيكِ حبيبتي لبيكِ رأس هتلر سيكون بيد يديكِ. أليس كذلك؟ أين هو رأس هتلر يا داتيكو؟».

«وماذا ينفعك رأس هتلر؟». قال هذا وهو يحاول الإقتراب من الموقد.

Twitter: @alqareah

«مكانك داتيكو وإلا صرخت وجمعت كل الجيران ليرحبوا بالبطل العائد».

«ليس همي إن صرختِ أو لم تفعلي. أنا لا أخاف أحداً من أجل عينيكِ عدتْ ولست خجولاً بما فعلت».

«لا يا داتيكو ليس من أجل عيني عدت بل الخوف جعلك تهرب».

«أنا لا أعرف الخوف».

«إذن لماذا هذا المسدس وتلك البندقية؟ ولماذا منذ أيام وأنت تختبىء بالغابة كما اللصوص؟».

«قريباً لن أعود إلى الإختفاء».

«أتتوقع وصول الجيش النازي إلى هنا؟».

«فعلاً أنتِ إمرأة ذكية. لقد خسرنا الحرب يا كيتو. أما سمعت كم من المدن سقطت؟ وكم من المساحات سيطر الألمان عليها؟».

«فعلاً إنك حقير لا بل أحقر من الحقارة».

«في النهاية سيان عندي، خسرنا الحرب أم ربحناها. أمتلك الأرض وهي ما تهمني. لماذا أموت ومن أجل من؟ من أجل أولئك الروس الذي يسيطرون علينا مثلهم مثل غيرهم من المستعمرين».

وقفت عمتي شامخة الرأس ورفعت يدها وكأنها تريد صفعه «أغرب عن وجهي يا وجه الشؤم. نحن دولة واحدة وليس هناك روسي أو جورجي أو أذربيجاني. هذا هو ستالين من أين؟ أليس من جورجيا يا أيها البطل؟ أليس إبن بلدك جورجيا يا داتيكو؟».

Twitter: @alqareah

جلس داتيكو ولف سيجارته وأخذ يمجها وكأن شيئاً لم يكن. أو كأنه مرحب به على الرحب والسعة «لا أحب الموت عبثاً. لنقل أني قتلت أو كما يقولون استشهدت، ما الذي سيتغير؟ هل سيتراجع الألمان إكراماً لموتي؟ أم أن أحداً لن يعود يذكرني؟ حتى أنتِ ستنسينني إن ليس هذا العام ففي العام التالي».

«ومن أنت الآن؟ أولست إنساناً منسياً؟».

«أنا مجرم سياسي». قالها بصوت متلعثم.

«أنتِ مجرد نذل هارب من واجباته تجاه أرضه التي يملكها والتي يدعي حبها ومن أجلها هرب». قلت له هذا والتصقت بعمتي.

«لو غيرك قال ما قلت، لكنت أفرغت هذه الرصاصات ـ وأشار إلي ببندقيته ـ في رأسه».

ثم حدق غاضباً: «أنسيت ماذا فعل الشيوعيون بأبيك؟ لقد اعتبروه عدواً للشعب وكذلك أمك؟ لولا عمتك لكنت اليوم كدودة منسية تحت التراب؟».

«لكن الأرض أرضي والوطن وطني. وهل سيعيد الألمان أبي وأمي؟ أم سيقيمون لهما التماثيل؟ إن كان هناك عدو للشعب فهو أنت أيها الهاربَ الجبان».

تأكد له أن النقاش معي لن يجدي نفعاً، فحول نظره نحو عمتي «كيتو، كنت في الليل وأنا أحمل بندقيتي هذه، أحلم فيكِ مثل جائع يحلم برغيف خبز، وأشتاق إليكِ كما تشتاق دكان غيراسيم للملح والصابون والسكر وما شابه. أرجوكِ أنت عندي أغلى من كل شيء.

Twitter: @alqareah

ولهذا تركت خطوط النار لأحترق بنار عينيكِ. نار الألمان تميتني، ونار عينيكِ تحييني».

بدا واضحاً أنه يحاول إثارة عواطف عمتي لكنه فشل في ذلك «أما زلت تحبينني يا كيتو؟ أعرف ذلك. وأعرف أنكِ على وعدك لي ما تزالين. قلت سأنتظرك يا داتيكو حتى تعود ولو بعد عشر سنين، إنما ها أنا عدت قبل عشرة أشهر. لم أشأ تحميلك نار الشوق كثيراً فعدت باكراً إليكِ. كل ما هو مطلوب منكِ الآن مساعدتي على الإختباء لأسابيع قليلة. بعدها يصل هتلر إلى هنا ولا يعود هناك من يطاردني، ولا أعود مطلوباً للعدالة الشيوعية المزعومة. ونحتفل بزفاف لم تعرفه القرية من قبل حتى ولا القرى المجاورة».

كان يتكلم وكأنه واثق من حديثه. ما يزال هو هو يكثر الكلام ويبرع في صياغة جملة وديبجة تعابيره. وفجأة هبت نسمة ريح قوية فاهتز الباب فانتصب داتيكو مصوباً بندقيته نحوه. كانت عيناه كعيني إبن آوى الذي وقع في الفخ. راح ينقل نظره بيننا وبين الباب، حتى تأكد أن لا أحد أتى فعاد وجلس مكانه على الكرسي ذي الأرجل الثلاث وقال «أنا جائع، منذ أيام لم أتناول الطعام الكافي».

وأجبته ببرودة أعصاب «ونحن أيضاً جياع بفضل أصدقائك الألمان الذين سيأتون إلينا ومعهم الخبز الأبيض والسكر والصابون».

«أتبخلان عليّ بقطعة من فطيرة ذرة؟».

«صدقني كلبنا جائع أيضاً. ولو كان عندنا فطيرة ذرة لكان هو أولى بها منك».

حدق بي بعين غاضبة «لولا كرامة عمتك لجعلت هذه البندقية

Twitter: @alqareah

تشوي لحمك على جمر هذا الموقد».

«هذا إذاً كنت بطلاً وجريئاً ولكن هل يستيطع الجبناء فعل هذا؟ أم أنهم يخافون افتضاح أمرهم؟ قل لي يا أيها البطل الصنديد لماذا هربت؟ هل اشتقت للجلوس تحت تلك الشجرات الملتفة على بعضها عند أسفل الوادي على ضفة النهر؟» من هو مثلك لا يستحق الحياة. أنت هنا كنت وما تزال بعيداً عن خطوط القتال و لم تعرف معنى أن تكون معرضاً للموت في أية لحظة».

«لماذا معرض للموت بل قل مستعد لقتل عدوه».

«إسمع يا سوسويا أنا لم آتِ إليك بل لعمتك فاصمت».

«أخرج من هنا يا ابن الكلب فلا أنا ولا عمتي نحبك. فاخرج من هنا حالا».

«عمتك ما تزال تحبني. أنا أعرف ذلك».

«قد تكون كذلك ولكن هناك حباً أقوى وأرفع مقاما، هو حب الأرض والوطن، عمتي لا تبيع كرامتها من أجل عيني جبان هارب. عمتي تحب من هو. شامخ الرأس مرفوع الجبين، الذي يمشي في الضيعة وكأنه سيدها. عمتي لا تحب أمثالك أبدا».

أحس داتيكو أن لا أمل له في الحصول على بعض من الطعام، فنهض وتقدم منا، تراجعنا أنا وعمتي إلى الوراء حتى التصقنا بالحائط وصاحت عمتي بوجهه «إبتعد وإلا سأصرخ».

«إصرخي.. إفعلي ما تشائين» قال هذا وأمسكها بكتفيها ومضى يقول «دمرتني يا كيتو لأجلك هربت فاصرخي بأعلى صوتك وليلتم

Twitter: @alqareah

الجيران وليعتقلونني. دمرتني والآن تطردينني من بيتك ومن قلبك أيضاً. قولي شيئاً لم يعد يهمني إن بقيت حراً أو اعتقلت فقد خسرت كل شيء: خسرتك أنتِ وخسرت قيمتي كمواطن. تكلمي وإلا سأقتل نفسي وتتحملين مسؤولية موتي».

أمسك بصدغيّ عمتي وأخذ يمرر يده على وجنتيها وكأنه يود ضمها إلى صدره. انحنى فوق عنقها وبكل وقاحة شرع يقبله بنهم، وعمتي كجثة هامدة بين ذراعيه، لا تبدي حراكا، ولا استجابة. كل ما فعلته، أن ذرفت دموعاً وتملكها خوف شديد، كذلك أنا. عمتي لم تترجم غضبها إنما أنا فعلت. هجمت عليه وأمسكته بكتفيه وأبعدته عنها وعضضت عنقه حتى كدت أقتلع له قطعة لحم. تألم داتيكو لكنه كان أجبن من أن يصرخ خوفاً من سماع الجيران صوته. ترك عمتي ولطمني براحة يده لطمة أوقعتني أرضاً عند زاوية السرير فاقد القوى، لست بقادر على الحركة. حين استفقت من صدمة اللطمة رأيت عمتي تجلس القرفصاء إلى جانبي تفرك رأسي وجبيني وهو يفرك عنقه مكان العضة.

رمته عمتي بنظرة غضب «أرأيت كدت تقتله يا وجه النحس».

«لا تخافي. هذا الشرير مثله مثل القطط بسبع أرواح».

وتركتني عمتي ملقياً قرب زاوية السرير واتجهت إلى زاوية الغرفة حيث كانت هناك فأس كبيرة حملتها ورفعتها بوجه داتيكو. أحس داتيكو أن العمة لم تعد خائفة بل استعادت شجاعتها وقواها. «إرمي الفأس من يدكِ يا كيتو» لكنها بدلاً من أن ترمي الفأس رفعتها عالياً وتقدمت منه حتى صارت الفأس فوق رأسه، فتراجع هو إلى الوراء زاعقاً «ماذا تفعلين أفقدتِ

Twitter: @alqareah

صوابك؟ أنا داتيكو، مَن أحبك وضحى إكراماً لعينيك».

«أخرج حالاً وإلا جعلت دم رأسك ينزف هنا».

كان هو يتراجع من زاوية إلى أخرى، وهي تتبعه شاهرة الفأس فوق رأسه. أمسك بمسدسه وبندقيته وتلمس الطريق إلى الباب وخرج مسرعاً كما القطة الهاربة من أمام وجه كلب مسعور.

معاً استلقينا على سرير واحد وكأننا نستفيق من كابوس مزعج. ضممتها إلى صدري وشددتها حتى أصبحنا جسداً واحداً. كانت جبهتها أبرد من حافة السرير المعدني الذي نستلقي عليه.

تنهدت وهي تقول «لعنة الله عليك يا خاتيا، لماذا كذبتِ عليّ؟»

فأدركت أن خاتيا كانت تعرف بهرب داتيكو وأنها أخفت الأمر عنها، وأيقنت لماذا زارتنا قبيل بزوغ الفجر. ولماذا أقسمت بقبر أمها يوم قصدتها لأستعلم عن الأمر».

«نامي عمتي نامي، لا أظنه سيعود بعد اليوم».

«إن أمثاله يا ولدي لا يخجلون ولا يرعوون عن فعل كل شيء. من يبيع وطنه يبيع كل شيء حتى كرامته وإنسانيته».

Twitter: @alqareah

6

منذ صغره وبيجان أشيب الرأس ضاحك الفم. ما رأيته يوماً عابساً، أو متلكئاً عن تلبية طلب أحد. كان صغيراً حين وقع من أعلى شجرة الحور، وأصيب بالإغماء وحين استفاق واستعاد وعيه ضحك وما يزال. لا أحد له في هذه القرية، لا أم ولا أب. ماتوا جميعاً و لم يبقَ إلا هو. حافي القدمين يسير، لقاء نصف فطيرة ذرة أو كأس نبيذ يقدم العون لمن يطلب. يمشي في أزقة الضيعة يرنم بصوته الرخم: ميناورا... ميناورا

حبيبتي ميناورا..

يا ذات العينين السوداوين.

أصابك الشيطان بالعين.

لا أحد يدري من هي ميناورا. ليس في القرية أو في القرى المجاورة أية فتاة بهذا الإسم. والويل لمن يذكرها بالسوء، أو يقول إنها تزوجت، فلن يتوانَ عن تمزيق ما عليه من ثياب، إو إقتلاع شجيرة أو لربما صخرة. فعلاً إنه قوي البنية، يستطيع أن يربط نفسه إلى المحراث ويشق الأرض، يكسر الجوز برأسه، يلتقط الكستناء بقدميه

Twitter: @alqareah

الحافيتين. هادىء، مسالم، يحب الأطفال ويرغب بملاعبتهم. يدخل أحد البيوت ويطلب الطفل وحين تسأله الأم لماذا تريده يا بيجان؟ يبتسم ويقول «لألاعبه، سأجعل من نفسي حصانا، وأعدو به هنا، في فناء المنزل ليس بعيداً. لا تخافي عليه إنه مع بيجان، يعني أنه في أمان».

يصعد الطفل على ظهره ويعطيه عصا صغيرة «هذا المهماز ولكن لا تضربني به».

لا أحد يخاف على طفله طالما هو مع بيجان ولا أحد يمنعه من العدو في الفناء. أحببته وأحبني حتى أصبحت الإنسان الوحيد الذي يبوح له بأسراره، إلا سر مينادورا. لست ادري لماذا يعتبرني أذكى شباب القرية، ولماذا لا يخفي عليّ شيئاً.

صباح أحد الأيام جاءني وهو ينادي من بعيد «سوسويا.. سوسويا» دعته عمتي إلى الدخول، لكنه أحب الإستلقاء تحت شجرة الكرز، ولم يمانع أن نعطيه بعض الطعام إذا كان متوفراً. أسرعت عمتي وصبت له كأساً من النبيذ وناولته فطيرة جبن ولحقت أنا بها. نظر بيجان إلينا معاً، فرأيت بضعة دموع في عينيه، سألته «لماذا يا بيجان؟» لأول مرة أراك دامع العينين؟

تنهد بيجان من أعماق صدره «لست أدري يا كيتو». قال مخاطباً عمتي وليس أنا، وتابع «أزقة الضيعة خالية من أية حركة، هذا السكون يخيفني».

«ماذا يا بيجان؟ تساءلت أنا».

Twitter: @alqareah

«نعم إنه يخيف بيجان المجنون. يقولون إن المجانين لا يخافون، أما أنا، صدقاني، أنا خائف».

«ومن قال عنك مجنون؟ خسرته أمه من يقول هذا. ومن ثم ها أنت خائف، والمجانين لا يخافون».

«هل أقطع لك الحطب يا كيتو؟».

«شكراً عندنا ما يكفي الآن».

قضم بيجان قطعة من الفطيرة وشرب بعضاً من النبيذ، وعاد يتساءل «هل ستذهبين إلى الطاحونة يا كيتو؟» ثم أردف يقول «ليس في الطعام ملح ولا في الجبنة. ما هذه الحياة؟».

«الحصول على الملح صعب جداً يا بيجان هذه الأيام». قالت عمتي

«أعرف هذا يا كيتو،، ولكن أهل القرية يعتبرونني معتوهاً حين أقول ما تقولين. أقول لهم إزرعوا الملح والسكر بدلاً من الذرة والحنطة، فيهزؤن مني، أرأيت يا سوسويا؟».

تنهدت عمتي وانصرفت وهي تلوي برأسها يميناً وشمالاً، وبيجان يلاحقها بنظراته «سوسويا لماذا لم تتزوج عمتك حتى الآن؟ إنها تحب داتيكو وهو يحبها».

«من...؟ داتيكو؟».

«نعم داتيكو... لقد التقيته في ستابلي. كان مدججاً بالسلاح وحين سألته عما يفعل هناك قال إنه في مهمة سرية لأن جبهة

Twitter: @alqareah

حرب جديدة قد تنشب قريباً وعلى سبيل الإحتياط».

«وماذا قال أيضاً يا بيجان؟».

«وماذا يعنيك ماذا قال بعد؟ لقد أخبرت رئيس المخفر و لم يسألني مثلك. على كلٍ أنا آتٍ إليك لأمر آخر».

«ما هو؟».

«هناك في مزرعة الشاي إنسان متعب القوى. لست أدري ماذا أفعل به؟».

«أي إنسان هو هذا؟ أغريب؟ ومن يكون؟».

«وكيف لي أن أعرف من هو؟ سألته وكررت السؤال لكنه لم يجب. كل ما فعله أن انطرح أرضاً وأغمض عينيه وطوى ذراعيه فوق صدره وابتسم».

«ما يزال حياً؟».

«كيف لي معرفة ذلك؟».

«من نبضات قلبه».

«لست أدري».

«أتعتقد أنه مات؟».

«أرأيت ميتاً يبتسم؟ يا لك من أبله يا سوسويا؟». قال هذا بلهجة الغضب.

«إذن ما الذي طرحه أرضاً كما تقول؟».

Twitter: @alqareah

«لست أدري».

وصرخت به «وماذا تعرف إذن يا بيجان؟».

«أعرف أن اليوم هو الأحد وغداً هو يوم الإثنين، وقد يكون الطقس مشمساً أو غائما». قال هذه وهو يبتسم وكأنه يريد إثارة غضبي.

«عليك اللعنة يا بيجان. هيا معي إليه».

مضى أمامي وتبعته. وما إن أصبحنا خارج البلدة حتى انطلق يغني:

«عيناك السوداوان يا ميناورا

تشبه عيني الشيطان

كلاهما تقدح ناراً

حتى الموت أحبك يا ميناورا

حتى الموت أحبك».

ما إن أصبحنا على مشارف المزرعة حتى وقف بيجان وأشار بيده إلى شجرة سنديان قديمة وقال: «إنه يرقد تحت تلك الشجرة».

كانت الشجرة مغطاة بأغصان السرخس العالية، والكثير من الأعشاب والشجيرات، حيث أنه يمكن إخفاء حصان بينها. ما إو وصلت إلى جذع الشجرة حتى وجدت رجلاً ناحل الجسد شاحب الوجه كما الأموات، لا لون في خديه ولا في أصابعه. يبدو من ملامحه أنه روسي. يداه مستقرتان على صدره وبالفعل كما قال بيجان ما يزال يبتسم. ركعت إلى جانبه ووضعت أذني على صدره

Twitter: @alqareah

لأتأكد من أنه ما يزال يتنفس لكن ببطء. جسست جسده فوجدته محموماً. «متى رأيته يا بيجان؟».

«اليوم صباحا».

«وأين تسكعت كل تلك الفترة؟».

«توجهت إليك تواً، ولكن شرد ذهني نوعاً ما. إن فقدان السكر يا سوسويا يجعلني أشرد كثيراً، فأنسى ما أنا راغب في فعله. لقد ضعفت ذاكرتي. لست وحدي من ضعفت ذاكرته بل الكل مصاب بهذا المرض. إنه فقدان السكر يسبب هذا».

«فعلاً؟ وهل أصبحت طبيباً يا بيجان؟ من الأفضل نقله الآن إلى البيت. تفضل وساعدني على حمله».

رفع بيجان الروسي الطريح على كتفه وكأنه يرفع طفلاً صغيراً. «إلى أين تريدني أن أنقله؟».

«إلى البيت. بيت عمتي».

«ما بك سوسويا؟ أنا أعرف أن الميت ينقل من البيت ولا ينقل إليه».

«حسناً لنمضي الآن به».

ـ ما اسمه يا سوسويا؟ أتعرف ما اسمه؟.

ـ وكيف لي أن أعرف؟

ما إن وصلنا البيت حتى صعد بيجان الدرج وأدخل المريض إلى حجرة الجلوس ووضعه على الأريكة. جمدت عمتي مكانها «من

Twitter: @alqareah

هذا يا بيجان؟ ولماذا أتيت به إلى هنا؟».

ـ إنه الروسي صاحب سوسويا يا كيتو».

ـ وجدناه في مزرعة الشاي يا عمتي يبدو أنه يحتضر هل لك أن تساعديه؟

ـ ومن هذا الذي تسألني مساعدته؟» ما إن لامست يدها جبينه حتى صاحت «سوسويا هات الخل من المطبخ أسرع. إنه محرور.

وفيما كنت أجلب الخل كانت هي قد بدأت بتفكيك أزرار قميصه فإذا بجرح على صدره لم يلتئم بعد. «يبدو أن الجرح ملتهب فسبب له الحمى». وضعت ميزان الحرارة تحت إبطه لدقيقة أو اثنين وما إن قرأت الحرارة حتى صاحت مجدداً ويلتاه حرارته ٤١ درجة. ماذا أفعل الآن يا سوسويا لماذا أتيت به إلى هنا؟ أو تعتقد أني طبيبة أو مديرة مستشفى؟».

ـ هل نستدعي الطبيب يا عمتي؟

ـ لا ضرورة لذلك قال بيجان «أطعموه فقط. إسمعوا كلام بيجان».

خرجت كالمجنون لاستدعاء الطبيب ولسوء حظي لم أجده في عيادته وعلمت من الممرضة أنه لن يعود اليوم. في طريق عودتي إلى المنزل عرجت لرؤية خاتيا وأخبرتها ماذا حدث فما كان منها إلا أن أسرعة واستدعت الجدة أكفرينا التي لم تضع الوقت بل حضرت ومعها جميع أنواع سوائل الأعشاب.

Twitter: @alqareah

لم تكد الجدة أكفرينا تنظر إليه حتى قالت «إنه روسي.. روسي» جلست إلى جانبه على الأريكة وراحت تحدق به وتراقب تنفسه. كانت على شفتيه ابتسامة، حتى اليوم لم أعرف سبباً لها. حتى بيجان تساءل: «عجيب أمر هذا الروسي إنه يحتضر ويبتسم وكأنه أتانا برأس هتلر». نظر بيجان إلى أكفرينا وخاطبها معاتباً «أكفرينا لماذا لم تردي عليّ التحية عند الصباح؟ أما أستحق ذلك؟».

«أغرب عن وجهي الآن. أما تحدثنا لنصف ساعة أو أكثر؟».

«فإذن أمس. لماذا لم تردي عليّ التيحة صباح أمس؟».

رفعت أكفرينا جفني المريض وحدقت ملياً بعينيه «هات أعطني كأساً من النبيذ يا سوسويا. وليكن نبيذاً صافيا».

جلبت النبيذ بأسرع ما يمكن. بللت الجدة أكفرينا قطعة قماش ووضعتها على شفتيه، ومن ثم عصرت القطعة في فمه، وأخذت تراقب ردة الفعل عنده. ما هي إلا دقائق حتى ارتعشت الشفتان. عاودت أكفرينا الكرة وعصرت النبيذ في فمه مباشرة، فحاول ابتلاع القطرات التي أنزلت، لكن لم يتمكن بسبب الجفاف الذي أصاب الشفتين. فصاح بيجان «هاتي النبيذ يا أكفرينا أنا أحق به منه. إنه لا يريد شرب النبيذ».

«أغرب عن وجهي يا بيجان». صاحت الجدة أكفرينا وتابعت بذات اللهجة «لا تدعني أرتكب اليوم إثماً. أما تدري أنه جريح؟». ثم عاودت عصر النبيذ في فمه ثالثة، فابتلع بضع قطرات بسهولة فقدمت الكأس من فمه وجرّعته. غرق الروسي بنوبة سعال جاف

Twitter: @alqareah

حتى ازرقت شفتاه، فرفعت الجدة رأسه وضمته إلى صدرها، فراح السعال يخف تدريجياً واضمحلت الزرقة عن شفتيه. وضعت رأسه على المخدة «أنتما أيتها المرأتان إخرجا الآن من فضلكما».

بدا الخوف على وجه عمتي «وهل هو يحتضر يا أكفرينا؟».

«لا.. لا عليكِ إنما يجب تدليك جسده بالزيت الفاتر».

خرجت العمة إلى الشرفة وبقيت خاتيا صامتة فصاحت الجدة «وأنتِ يا خاتيا لماذا لم تخرجي؟».

«ولماذا أخرج أم أنك ترينني أرى سمّ الإبرة في عتمة كانون؟».

«عفواً يا ابنتي لم أقصد. صدقيني خاتيا».

خلعت الجدة ثياب ملابس الجندي الروسي حتى عرته تماماً، وصبت على جسده سائلاً داكناً وأخذت تدلك صدره أولاً. ضحك بيجان وتساءل «أما يتدغدغ هذا الملعون؟». رمقته بنظرة حادة وكأنها سياط وطلبت منا أن نلقيه على ظهره فكان لها ما أرادت. كذلك صبت على ظهره السائل الداكن وراحت تدلك ظهره كما فعلت على الصدر. وفيما الجدة تدلك المريض نظرت أنا إلى خاتيا وطلبت منها الخروج. فبكت وولت إلى خارج الغرفة فتبعتها والخجل يعتصرني والدم يتدفق من وجهي. ولكن بيجان صاح بي «عد أيها الأحمق. فعلاً إنك أحمق، وكأنك لا تعرف خاتيا».

رمقتني عمتي بنظرة تمنيت لو أني مت قبلها. فعلاً كانت نظرة غضب وعتاب شديد. همت بصفعي لولا وصول الجدة أكفرينا التي

Twitter: @alqareah

جاءت تسأل عما إذا كان لدينا ثياب لنلبس الجريح. أسرعت عمتي وجاءت بثياب المرحوم جدي.

«جيوبه فارغة كرفوف دكان الضيعة». قال بيجان، وهو ينقب في جيوب الجريح.

«وماذا سنفعل الآن يا أكفرينا؟». قالت العمة كيتو. «لا هوية معه تمكننا من التعرف إليه».

«إنه الروسي صاحب سوسويا». قال بيجان.

«ومن يدري قد يكون أوكرانياً؟». قلت أنا.

«ليس هماً. روسياً كان أم أوكرانياً فلن أتمكن من لفظ إسمه». قال بيجان.

«أتعتقدين أن الحياة عادت إليه يا أكفرينا؟». قالت العمة كيتو.

«لقد عادت. والفضل لك يا بيجان. أنت من أنقذ حياته».

سُر بيجان لهذا الإطراء، كما يُسر الطفل بلعبة جديدة. وتقدم من السرير وأمسك بيدي الجريح وهو يناديه «يا صاحب سوسويا الروسي». تململ الجريح قليلاً مما شجع بيجان على الإستمرار في محادثته «إنهض يا صاحب سوسويا. انهض وقل لنا من أنت».

اندفعت نحو السرير «دعه وشأنه يا بيجان إنه بحاجة للراحة».

«ألست أنا من أنقذ حياته؟ أوليس هذا ما قالته الجدة أكفرينا؟».

أومأت أكفرينا بالإيجاب. لكن بيجان لم يكف عن دعوته له

Twitter: @alqareah

للنهوض. وفجأة فتح الجريح عينيه، وكأنه استجاب لدعوات بيجان الذي صاح: «أرأيتم إنه ينظر إليّ أنا، من أنقذ حياته».

حدق الجريح بنا واحداً واحد ولمعت عيناه الزرقاوان الواسعتان وقال: «خنازير.. أنتم خنازير...».

دهش بيجان «ما هذا يا أيها المعاق أنت؟».

«يبدو أنه حسبنا ألمانا». قلت مهدئاً من غضب بيجان.

ـ أنا بيجان يا ابن الناس.. أنا من أنقذ حياتك.. تنعتني بالخنزير؟

إسمعي يا كيتو قد يهذي أثناء الليل، خذي هذه القارورة ودلكي صدره كل خمس ساعات وكذلك ظهرة. فأنا عليّ العودة إلى المنزل، وأطعميه نصف فطيرة من خبز الذرة. والآن تعال معي يا بيجان. علينا الذهاب، فصاحبك الروسي لم يتمكن من الهرب. غداً تأتي وتراه. وإن شئت تمضي اليوم كله إلى جانبه.

وقف بيجان منتصباً وأدى التحية العسكرية للجريح وخرج.

بقيت أنا والعمة وخاتيا قرب السرير. عند منتصف الليل تململ الجريح ورفع رأسه ينظر إلينا باندهاش واستغراب. ثم أشاح بعينيه نحو الباب وصاح «أيتها الممرضة».

كتمنا أنفاسنا رغبة منا تركه يتكلم على سجيته علنا نتعرف إلى هويته ونعرف من هو. لكنه أعاد رأسه إلى الوسادة وأغمض عينيه من جديد، وراح يئن من ألمه.

Twitter: @alqareah

«ماذ تريد؟». خاطبته عمتي باللغة الروسية، وقدمت له بعضاً من النبيذ، ورفعت له رأسه ووضعته على صدرها، تماماً كما فعلت الجدة أكفرينا، ثم دلكت صدره وظهره بالزيت. بدا عليها التعب والإرهاق. فطلبتُ منها الذهاب إلى غرفتها وبقيت أنا وخاتيا إلى جانب سرير الجريح.

«ماذا سيحدث يا سوسويا؟». قالت خاتيا.

«أما سمعت الجدة أكفرينا؟ سيتعافى».

«وإذا لم يتعافَ؟».

«ولماذا هذه الإذا؟ ثقي أنه سيتعافى. نعم هو بحاجة لبعض الوقت. أما رأيت الجرح على صدره؟ إنه جرح ملتهب يسبب له إرتفاعاً في الحرارة».

«ما بك اليوم يا سوسويا، كيف لي أن أرى الجرح؟».

أمسكت يدها ووضعتها تحت قميص الجريح على الجرح «والآن يا خاتيا؟».

«أتدري؟ لو كان الجرح على جهة اليسار لكان الآن في عداد الشهداء. أليس كذلك؟».

«فعلا».

راحت خاتيا تمرر يديها على وجنتيه وشعره وصدره «هل هو جميل المحيا؟».

«لا أدري. فلربما لحيته الكثة هذه تغطي جماله. إنه نحيف

Twitter: @alqareah

الجسد». لم أكمل كلمتي حتى، وبشكل فجائي، تكلم الجريح « هذا أنا أتسمعني؟ أتسمعني يا فيكتور؟».

وأجبته بتهيب متقمصاً شخصية فيكتور «نعم أسمعك».

«الجميع نيام، نستطيع الهرب معاً، أم تريد أن تتعفن في هذا السرير؟».

رماني بنظرة تساؤل وقال «ماذا رأيك؟ أتوافقني على الهرب؟ لماذا هذا الصمت يا فيكتور؟». رفع رأسه قليلاً ونادى بصوت خافت «أيتها الممرضة.. أيتها الممرضة».

لزمت أنا الصمت. وتابع هو يقول «إنهم نائمون حتى الممرضات، فاجمع أشياءك ولنذهب من هنا... هيا تحرك يا فيكتور. «رفع جسده وأمسك بيدي انتظر بزوغ الفجر». قلت له وأنا أطوق كتفيه.

«لا لن أنتظر بزوغ الفجر.. سأذهب الآن». قال هذا وأنزل قدميه عن السرير ونهض. لكن أمسكته بخصره «إلى أين أنت ذاهب؟».

حاولنا أنا وخاتيا إعادته إلى السرير، رغم جراحه كان ما يزال قوياً، حتى أنه تمكن من إيقاعنا أرضاً، وهو يصيح «اتركوني... اتركوني أيها الخنازير».

استفاقت عمتي على صوت صياحه، وقفت مشدوهة مما ترى وتسمع. لم يبقي أحداً منا إلا وشتمه ولعنه. كان أشبه بسمكة علقت بالصنارة وتحاول جاهدة البقاء تحت الماء.

Twitter: @alqareah

رغم زعيقه وصراخه وشتائمه لم نتوقف ثلاثتنا عن محاولاتنا لإعادته إلى السرير وإلى الهدوء.

«إذا كان جريحاً، ومصاباً بالحمى ويعاني من الجوع وما يزال يمتلك هذه القوة، فكيف لو كان سليماً معافى؟». تساءلت خاتيا إلا أن ثورته أخذت تخمد وجرى الدمع على خديه وهو يقول «أتركيني أيتها الممرضة، وتأكدي سأكون لك شاكراً على هذا، سأعطيك ما تطلبين.. أرجوكِ أطلقي سراحي».

قال هذا وهوى على السرير متعباً منهك القوى وغطَ في نومٍ عميق.

عادت عمتي إلى سريرها، وتمددت خاتيا إلى جانبها، أما أنا فرقدت على فراش قرب الموقد ورحت أفكر بهذا الجندي الجريح ومعاناته.

ـ عمتي.. أنائمة أنت؟

ـ لست أدري يا سوسويا إن كنت نائمة أم لا.

ـ لا تقلقي، غداً سأحاول نقله إلى المستشفى.

ـ دعك من الكلام الآن، لئلا توقظ خاتيا.

ـ ومن قال إني نائمة؟ قالت خاتيا وتابعت «إني أتساءل من أين هرب هذا المسكين.. يبدو أنه كان أسيراً لدى الأوغاد الألمان».

ـ «هكذا يبدو». قالت عمتي.

ـ سننقله إلى المستشفى غداً، أليس كذلك يا عمتي؟

Twitter: @alqareah

ـ «إنه هزيل وبحاجة للغذاء.. سنبقيه هنا، ونداويه دعونا ننام الآن». قالت عمتي هذا وخلدت إلى النوم مجدداً.

غفوت أنا، وجاءتني الأحلام الحلوة منها والسيئة، إنما هناك الحلم الدائم الذي منذ طفولتي وأنا أحلم به: كنيسة القرية، أهل الضيعة يرتدون أجمل ما عندهم من ثياب، الشباب والصبايا يشبكون الأيادي وهم يرقصون على إيقاع الأنغام الفولكلورية. وعمتي.. عمتي الجميلة كما صورة العذراء، ترتدي ثوب الزفاف الأبيض، والكل يرجوها أن تقبل به عريساً، وأنا أرجوها الا تقبل أحدا. فأنا وحيد في هذه الدنيا، ليس لي غيرها، إنما الليلة، رأيت الروسي الجريح بين الذين يطلبون يدها ويتوسل «اتركيني أيتها الممرضة وسأجازبك على هذا الصنيع»... وأنا أرجوها ألا تتركه وأن تأخذ بيده لنعود سوية إلى البيت.

أسبوع مضى وصاحبنا الروسي، يهذي حيناً ويغفو أحياناً. إن صحا، يجيل بعينيه في الغرفة، ونحن نعتني به كما لو أنه واحد من العائلة، نمنحه الحنان والحب. أما بيجان فلم يتخلف يوماً عن زيارته والجلوس قرب سريره، مفرغاً ما في صدره من كلام وكأنه صديق قديم، يفهم عليه ما يتفوه به.

«ما بك لا تحاول مغادرة السرير؟ لقد أتعبتنا يا رجل. انظر كيف نحلت. أعرف أنك لا تعرف اللغة الجورجية ولا أنا أعرف اللغة الروسية. ولكن دعنا نتكلم كل في لغته وهكذا نتواصل. حين تتعافى سنجلس معاً، أنت تغني بالروسية وأنا أغني بالجورجية. لا عليك سأغني لك الآن:

Twitter: @alqareah

من حاك هذه الثياب

يا حلوة العينين؟

قد حطمت قلبي

حتى أصبت بالجنون.

آه يا أيها الروسي، لقد أنسيتني أحزاني على ابن لوقا، آه كم كنت أحبه، قتله الأوغاد، ولكن كن على ثقة أن واحداً من أبناء هذه الضيعة سيعود برأس هتلر.

خلال هذا الإسبوع، كان الطبيب يزورنا يومياً للإعتناء به وحقنه بالمضادات الحيوية، وكذلك كان أهالي الضيعة، يأتون يومياً، وكلٌ يجلب من الطعام ما توفر في منزله.

بعد أسبوع ونيف تعافى الروسي، فجلس في سريره، وأخذ يحدق بنا واحداً واحداً ويتساءل:

أين أنا؟ من أنتم؟

تطوعت عمتي لتشرح له، كل شيء، من نكون نحن، وكيف وصل إلى هنا، وكيف اعتنينا به. بدا الإرتياح على وجهه، أيقن أنه لم يعد أسيراً لدى الأعداء، وعرفنا من نظراته أنه يحاول أن يتذكر أشياء وأشياء. تركناه وحده في الغرفة وخرجنا ثلاثتنا معاً.

أمسكت بيد خاتيا واتجهنا نحو ساحة الضيعة.

ـ فعلاً إنه بحاجة لطعام فقد، قالت خاتيا.

ـ ومن أين لنا الطعام المغذي يا خاتيا؟ أما ترين ماذا خلفت

Twitter: @alqareah

الحرب وراءها؟ حتى الدكان خلت من الملح والسكر ومن علب الكبريت وعدنا إلى العصر الحجري.

ـ حليب الماعز.. لا شيء غير حليب الماعز يغذيه، أليس كذلك يا سوسويا؟

ـ بلى... ولكن من أين نأتي بحليب الماعز؟

ـ لا عليك يا سوسويا سنتدبر الأمر.

ـ كيف؟..... لا أعتقد أن أحداً على استعداد لإعطائنا ولو كوباً واحداً من الحليب، لأنه تحول إلى وجبة الطعام الرئيسية عندهم.

ـ أعرف، ولكن لنعد إلى المنزل الآن..

ـ ولماذا؟

ـ لنحضر قدراً نملؤه بالحليب.. أرجوك سوسويا إفعل ما أقول لك.

لم أدخل في نقاش معها، أحضرنا قدراً معدنياً ذهبنا إلى النهر، حيث كانت الماعز تقصده للإرتواء بعد رعي نصف يوم كامل، كان علينا، أو عليّ وحدي حقيقةً، أن أمسك بالماعز وأسرق حليبها، واستمرينا اسبوعاً كاملاً على هذا المنوال، نحن نسرق الحليب وعمتي تدعو بطول العمر لأهل الضيعة والناس على كرمهم، اعتقاداً منها أنهم يرسلون الحليب مساعدةً لنا في الاهتمام بالروسي الجريح. ولكن بالوقت ذاته، أخذ أصحاب الماعز يكتشفون فعلتنا دون أن يعرفوا من الفاعل.

Twitter: @alqareah

أصاب القلق أهل الضيعة، حتى أولئك الذين لا يمتلكون الماعز. وراحوا يتساءلون عن الفاعل وليس عن السبب، فهذا الأخير معروف من الجميع، الجوع هو السبب، ولكن من الفاعل لا أحد يعلم.

صار الحصول على الحليب أمراً صعباً، فلم تعد الماعز تخرج وحيدة، بل برفقة حراس، ورغم هذا كنا نتمكن من الاستفراد بواحدة شردت عن القطيع أو سهى صاحبها عنها للحظات نكون نحن أفرغنا خلالها ضرعها.

وإذا كان أهالي الضيعة، ما يزالون يحاولون معرفة من الفاعل فعمتي، صارت على يقين من أننا، أنا وخاتيا، نفعل ذلك.

عند المساء كانت عمتي بانتظارنا في حديقة المنزل، وما إن رأتنا حتى طلبت منا أن ترى أيدينا.

ـ ولماذا يا عمتي؟

ـ أجل لماذا يا كيتو؟ قالت خاتيا

ـ إفعلا ما أقول... وإلا..

مدت خاتيا يدها. فقربتها عمتي من أنفها، وعلى غفلة مني أخذت يدي وحدقت بها.

ـ إذن أنتما من يفعل ذلك؟

صباح اليوم التالي، وكالعادة، كان عدد كبير من عجائز الضيعة متحلقين أمام الدكان لسماع الأخبار، ولكن لا شيء جديد، وبدلاً

Twitter: @alqareah

من الحديث عن الحرب وويلاتها، راح الجميع يتحدث عن سرقة الحليب. ينظرون إلينا، بنظرات إتهامية واضحة، الأمر الذي أزعج بيجان فانتصب واقفاً.

· «لا.. لا يا أهل ضيعتي.. ليس سوسويا ولا خاتيا، من فعل ذلك، بل أنا.. أنا الذي أنهكني الجوع، فلم أجد غير الماعز وحليبها، كنت أضعه في فمي مباشرة... نعم ها أنا أعترف أمامكم. أنتم تقولون من لا يعمل لا يأكل. وبالوقت ذاته ترفضون اسناد اي عمل إليّ. لماذا؟ إسألوا أنفسكم أيها السادة، لأني مجنون كما تقولون، فكيف لي أن أحصل على قوتي إذن؟ ومن ثم فماعزكم لا يعمل أيضاً.. لكنها ترعى في كل مكان، تأكل العشب الذي لو لم تأكله لكنت غذيت نفسي به، فعمدت أنا إلى حلبها بشفتي، هذا كل ما في الأمر.. أتريدون معرفة كيف.. حسناً هكذا».

ووضع بيجان إبهامه في فمه وراح يمثل وكأنه يرضع الحليب من ضرع الماعز.

وصلت عمتي، ورأت بيجان وإبهامه في فمه... كفى يا بيجان.. «أنت لم تفعل شيئاً، إسمعوني يا جيران، يا أبناء ضيعتي، أنا من أتحمل المسؤولية ولا أحد غيري.. أنا بعثت هذين الأخرقين ـ وأشارت إلينا، أنا وخاتيا ـ بحثاً عن الحليب لإطعام الروسي الجريح، وكانا يعودان كل مساء ويقولان، هذا هو الحليب ويدعيان، أن أحداً منكم أرسله. لم يخطر ببالي قط أنهما يفعلان ما يفعلان، وأنهما يعيدان الفضل لكم. إذن أنا الملامة، فاعذروني، وإني لعلى إستعداد لرد جميلكم هذا».

Twitter: @alqareah

كانت عمتي تتكلم، والجميع ينظر إليها وكأن الطير حط على رؤوسهم. ساد صمت رهيب لم يقطعه صوت أحد إلا صوت إمرأة في الخمسين «لعنك الله يا سوسويا.. لماذا لم تخبرني الحقيقة، والله لكنت وهبتك الماعز كلها وليس حليبها فقط».

ابتسمت خاتيا وهمست في أذني «إنهم شعب طيب، إنهم يحبون بعضهم بعضا.. فكيف لهتلر أن ينتصر علينا؟».

Twitter: @alqareah

7

عند جذع شجرة السنديان على مفترق الطرق المؤدي إلى ضيعتنا وضع ساعي البريد حقيبته أرضاً وجلس طلباً للراحة. لقد أضناه التعب، ليس بسبب التنقل من ضيعة إلى أخرى، أو من بيت إلى بيت، هذا تعب جسدي، سرعان ما يزول حين يلقي الحب والحنان وتشدد من عزيمته، أو عندما تأتيه طفلته إبنة السنوات الأربع والإبتسامة على شفتيها وتشبعه تقبيلاً وهي تجلس على ساقه اليمنى كما يحلو لها أن تجلس دائماً، وكأن هناك عداوة بينها وبين الساق اليسرى. تعبه الحقيقي، هو التعب النفسي.

من يدري ماذا في هذه الرسائل التي يوزعها على أصحابها؟ أوليس فيها أخبار وفاة أصدقاء أو أقرباء؟ أوليس فيها شرح لمعاناة المرسل ووصف لساحات القتال.

«أنا أحمل الإبتسامات والدموع في آن.. أحمل الطمأنينة والحزن.. أولست أنا من جاء بالرسالة التي جعلت لوقا وزوجته يرتديان ثياب الحداد؟».

حدق ساعي البريد بعصفورين يتبادلان القبل على أسلاك

Twitter: @alqareah

الهاتف، دون اهتمام له، ابتسم وهو يمسح العرق المتصبب على جبينه، وراح يستعيد ذكريات حبه لزوجته وكيف كانا يتبادلان القبل خلسة خشية، أن يراهما أحد فتقوم القيامة، وتلوكهما الألسنة بالسوء، تذكر أيضاً، كيف رأى المرحوم ابن لوقا يقبل ابنة غيراسيم عند حافة النهر تحت شجرة الصفصاف. «أين هو ابن لوقا اليوم؟ إنه هناك في المقلب الثاني من العالم، وهي لن تجد من يقبلها بعد اليوم.. لا.. لا هناك شباب كثر، ولكن أين هم الشباب؟ إنها على خطوط النار يدافعون عن الأرض والعرض. أوليس هذا ما أراده هتلر الوغد؟».

قال هذا لنفسه ونهض، حاملاً حقيبته «ليكن ما يكون.. وما ذنبي أنا؟ أنا مجرد ساعي بريد لا أكثر ولا أقل. وإن لم أكن أنا من يحمل هذه الرسائل فسيكون غيري.. ولكن لماذا هذا الإكتئاب، ولماذا هذا الخوف من الرسائل؟ وهل هناك موتى يكتبون رسائل، أو يبلغون عن وفاتهم؟».

كالعادة، وكما في كل يوم أربعاء، كان معظم الباقين من أهل القرية ينتظرونه في الساحة. ينتظرون والقلق يؤرق انتظارهم. تُرى ما الذي ستحمله إليهم الرسائل اليوم؟ ومن سيكون له رسائل من إبن أو زوج أو شقيق؟ والأهم من ستكون له رسالة من مكتب التعبئة في القيادة العامة للجيش السوفياتي، كما استلم لوقا؟

وصل ساعي البريد والتجهم بادٍ على محياه. إنه متعب، و لم تجدي كل كلمات الترحيب به من التخفيف عنه، والذي آلمه أكثر، سؤال طفلة في الخامسة من عمرها «هل أرسل لي أبي لعبة معك؟».

Twitter: @alqareah

تقدم ساعي البريد منها، غمرها، أغدق عليها من حبه وأمسك دمية، كان قد اشتراها لابنته، وقال «بلى يا صغيرتي لقد أرسل لك أبوكِ اللعبة التي وعدكِ بها؟ ها هي».

تناولت الطفلة الدمية وراحت ترقص فرحاً، غَمَرتها، ضمّتها إلى صدرها، وأخذت تقبلها حيناً، وتداعب شعرها الأشقر حيناً آخر. تقدمت والدتها من ساعي البريد محاولة التكلم، لكنه وبحركة من يده، أفهمها ألا تتكلم أبداً «دعيها مع فرحها الآن..». مسحت المرأة دمعة عن خدها، وتنهدت من أعماق صدرها، وأمسكت بيد إبنتها وغادرت.

تحلق الجميع حوله يسألونه عما يحمل.

«إسمعوني يا رفاق، صدقوني إني أتألم أكثر من أي إنسان آخر، وثقوا أني سأستقيل...».

رمى حقيبته بقوة، فتناثرت الرسائل على الأرض وكذلك الصحف والمجلات، والأهم تلك المظاريف التي كتبت العناوين عليها بواسطة الآلة الكاتبة. تفرس الجميع بهذه المظاريف و لم يتقدم أحد منها وكأنها مرض الطاعون، تملكهم الخوف حتى بدوا وكأنهم يسيرون في جنازة، وحاولوا الإنصراف، لكنه ـ أي ساعي البريد ـ صاح بهم.

«إفهموني جيداً، لا تعتقدوا أبداً أني مسرور من رؤية دموعكم. أنا على يقين أنكم تكرهون رؤيتي أكثر مما تحبونها، لأن الخوف يسكن قلوبكم مما أحمل، وأنا كذلك مزروع بالخوف. أتمنى لو

Twitter: @alqareah

أسكر حتى الثمالة ولا أصحو من سكرتي، لست أنا من أعلن الحرب، ولا أنا من يدير العمليات، أنا مجرد ساعي بريد لا أكثر ولا أقل، أقوم بعملي هذا لأكسب قوت عائلتي».

رفع نظره إلى السماء وتابع يقول «ربي أنا بشر من لحمٍ ودم، أنت من خلق العالم، فتكفل به بنفسك لماذا تحملني هذا العبء الذي لم أعد قادراً على حمله؟ إسمعوا يا رفاق، فليأتي كل واحد منكم ويبحث بين الرسائل عن رسالة له».

وبالفعل تقدم العم غيراسيم وأخذ ينادي كل من له رسالة، ولحسن الحظ، لم يكن بين المظاريف التي كتبت العناوين عليها بواسطة الآلة الكاتبة، أي مظروف لواحد من أبناء الضيعة، فانفرجت الأسارير، وانفرجت أسارير ساعي البريد خاصة، وعادت الإبتسامات ترتسم على الشفاه.

Twitter: @alqareah

8

وأخيراً، تعافى جريحنا نوعاً ما، نهض من فراشه، ووقف أمام المرآة، وأخذ ينظر إلى شعر لحيته، ويمسده براحة يده، كان الإنزعاج بادياً على تلك التقاسيم، أحسبست أنه يتمنى أن يكون حليق الذقن، وبالواقع، أنا أيضاً تمنيت ذلك. لست أدري لماذا، كنت كلما تطلعت إليه، أتخيله واقفاً إلى جانب عمتي أمام مذبح الكنيسة والكاهن يسألها: «هل تقبلين فلاناً ابن فلان أو صاحب سوسويا الروسي زوجاً لكِ؟» ويتردد في أذني صوتها وهي تقول «نعم أريده زوجاً لي».

نعم كنت أتخيل ذلك، وأتمنى لو يكون حقيقة. تركته واقفاً أمام المرآة، وتسللت إلى خارج البيت قاصداً حلاق الضيعة، الذي ما إن أبلغته عن رغبتي حتى أسرع معي إلى منزلنا.

في المطبخ كان هناك العديد من زجاجات الحليب التي جاء بها أبناء القرية في محاولة لمساعدة عمتي بتأمين الغذاء للروسي الجريح، الذي كان يراقب دخول الآتين بهذه الزجاجات باندهاش لا يوصف. كانوا يحاولون التودد إليه من خلال الإبتسامات

Twitter: @alqareah

والنظرات، فلا هو يتقن اللغة الجورجية، ولا هم يتكلمون الروسية.

شحذ الحلاق الموس، وأومأ إليه أن يجلس على كرسي ذي قوائم أربع، وأخذ يضع الصابون على ذقنه ويفركه بيده. ما هي إلا لحظات، حتى انتهى الحلاق من عمله، وبان وجهه على حقيقته.

إنه وسيم الطلة بهي، رغم ما يعتري بشرة وجهه من شحوب، ورغم الوهن الذي ما يزال يمنعه من التحرك طبيعياً. دخلت عمتي وبيدها فطيرة من الذرة وكوباً من حليب الماعز، نظرت إلى الجريح، فبدا الإندهاش عليها، «إنه شاب وسيم». قالت في سرها. وضعت الطعام على المنضدة أمامه وطلبت إليه تناول الفطور.

ـ والآن، صار يحق لنا أن نعرف من أنت وكيف وصلت إلى هنا، إن كنت تتذكر ذلك؟ قالت عمتي وهي تكلمه باللغة الروسية.

ـ أولاً، إني أتوجه لكم جميعاً بالشكر لاهتمامكم بي وقبولكم وجودي بينكم. إسمي أناتولي رومانوف.

«رباه إنه من سلالة القياصرة، وبالوقت ذاته يقاتل مع الجيش السوفياتي». قالت خاتيا.

وتابع أناتولي يروي حكاية أسره على يد الغزاة الألمان بعد إصابته بشظية قذيفة مدفع، وكيف أخذ إلى أحد المستشفيات الميدانية، وكيف تمكن ـ رغم آلامه وضعفه ـ من الهرب والزحف بين الأدغال حتى وجد نفسه بيننا. لكنه لم يكن قادراً على تذكر كم من الوقت استغرقه حتى وصل إلى هنا. يذكر أن أحداً ساعده بنقله على دابة لمسافة طويلة، دون معرفة لماذا رماه قرب النهر، حيث وجده بيجان.

Twitter: @alqareah

بعد تناول الفطور أعطته عمتي ثياباً جديدة كانت تعود لجدي، ومن غريب الصدف، أن مقاسهما هو واحد. وهكذا بدا أناتولي شاباً بكل معنى الكلمة. عاد ووقف أما المرآة، وأخذ يحدق بها، والدمعة في عينيه، تساءلت خاتيا عن سبب هذا الصمت الذي يخيم على المنزل فأخبرتها بما يجري.

أمسكت بيد خاتيا وأخرجتها إلى حديقة المنزل وعدت إلى أناتولي، وضعت يدي على كتفه وطلبت إليه الخروج معي للجلوس في الحديقة والتمتع بأشعة الشمس لعل ذلك يساعده على أن يتعافى سريعاً.

على كرسي ذي قوائم أربع، جلس وعيناه تجولان في أشجار الكرز والجوز والتفاح، وأكثر ما لفت نظره أسراب عصفور الشوك التي تطير، وتعود لتغط على السياج الشائك وعلى النباتات الشوكية الموجودة.

ـ حتى العصافير أليفة ولا تخاف البشر. قال أناتولي.

ـ نحن قوم مسالمون، ولولا هذا الوغد الذي إسمه هتلر، لكنا نعيش بألف خير وننعم بالهدوء والسلام. هذا ما حاولت إخباره به.

ـ فعلاً إنكم كذلك. ولكني أتساءل لماذا كل هذا الحليب الذي جاء به أبناء القرية؟

ـ أتوا به، لأنهم يعتبرون الحليب مغذياً جداً، للذين في مثل حالتك خاصة، وتعبيراً عن محبتهم لك ولنا.

ـ شكراً لكم على كل ما فعلتموه، على فكرة يا سوسويا، على

Twitter: @alqareah

أية جبهة يحارب زوج عمتك؟ أم أنكم لا تعرفون؟

ـ ليس لعمتي زوج، فهي ما تزال عزباء...

ـ ولماذا؟ إنها جميلة جداً...

قوله هذا أفرحني جداً، وأخبرت خاتيا بما قال فأجابت «وهل هو أعزب؟». إسأله يا سوسويا.

وبالفعل لبيت رغبتها وعرفت أنه هو كذلك ما يزال أعزب.

ـ رائع، صاحت خاتيا وتابعت: من يدري يا سوسويا؟ لربما ضارة نافعة.

ـ دعكِ من هذا الكلام ياخاتيا.

لم أكد أنهي كلامي، حتى جاءت عمتي لتجلس معنا وعيناها حائرتان بين السماء وأناتولي في محاولة لإخفاء ما بدأ يتفاعل داخلها من مشاعر.

فجأة نهض أناتولي، وضع يده فوق عينيه، وراح يحدق بالأفق البعيد، وكأنه يستطلع أبعاد الأمكنة والمسافات «أترين يا كيتو شجرة السنديانة تلك التي على أعلى قمة التلة؟» وأشار بيده نحوها.

ـ نعم أراها.. منذ أبصرت النور وأنا أراها.

ـ إذن هي شجرة عتيقة، لا أحد يدري كم من السنوات مرت عليها.

ـ فعلاً إنها كذلك، قالت عمتي.

Twitter: @alqareah

ـ ولا أحد أيضاً، يعرف كم من العواصف حاولت اقتلاعها أو جعلها تنحني، لكنها ما تزال شامخة، تتحدى العواصف والريح وحتى الثلوج. آخ لو يأتي هتلر إلى هنا ليراها. وتدخلت أنا متسائلاً «ولماذا يراها هتلر؟ أما يكفيه ما يرى من دمار وخراب؟».

ابتسم أناتولي وتقدم مني، مد يده وأخذ يداعب فروة رأسي «أتمنى ذلك، ليعرف أننا كتلك الشجرة لن تقوى جيوشه ولا دباباته أو طائراته من القضاء علينا».

ـ لكنه دمر مدناً بكاملها، وجعلها مدن أشباح؟ أليس كذلك؟... أم أنك لم تعلم بذلك.. بسبب معاناتك التي مررت بها؟

ـ من جديد ابتسم «كثيراً ما تتمكن العاصفة من كسر بعض أغصان تلك الشجرة، وترميها أرضاً، لكنها ـ وأعني الأغصان ـ تتحلل في التراب وتتحول غذاء للشجرة التي انتزعت مها، وهكذا تنمو أغصان جديدة، ويوماً بعد يوم يصلب عودها وتبدأ حكاية تحدي الريح والعواصف من جديد. وهكذا نحن...».

ـ فعلاً نحن كذلك.. قالت عمتي.. وكذلك كل الشعوب المؤمنة بأوطانها الرافضة للحرب، الراغبة في السلم، التواقة إلى الحرية.

في هذا الوقت، كان بيجان قادماً إلينا وهو يغني أغنيته المعهودة:

ميناورا.. ميناورا

يا ذات العينين الزرقاوين.

Twitter: @alqareah

ولكن ما إن وصل إلينا، حتى وقف عند بوابة الحديقة، وكأن الطير حط على رأسه وأخذ يحدق بأناتولي الذي كان ما يزال واقفاً بالقرب مني ويده على فروة رأسي.

تساءلت خاتيا «لماذا سكت بيجان؟ أوليس هو من كان يغني لميناورا ؟».

ومن غيره يغني لها أو يعرف من هي ميناورا؟

ابتسم بيجان وأخذ ينشد:

«يا هتلر نحن إليك آتون

افتح لنا أبواب برلين».

مد يده وفتح بوابة الحديقة، ودخل وهو يقوم بحركات راقصة منشداً أغنية تلو أخرى، وما إن وصل حتى عانق أناتولي بحرارة فائقة.

ـ إنه وسيم يا سوسويا..

ـ فعلاً إنه كذلك يا بيجان.

تساءل أناتولي عن معنى أغنية بيجان، فشرحت له عمتي حكاية ميناورا التي لا أحد يعرفها، وحتى بيجان نفسه لا يعرفها إلا في مخيلته، والويل لمن يقول إن ميناورا قد تزوجت أو أصيبت بأذى.

ابتسم أناتولي «مسكين بيجان، لكنه إنسان لطيف وودود ولولاه لما كنت أنا الآن بينكم، فعلاً أنا مدين له بحياتي».

«إنه كذلك، لا يتوانى عن خدمة الآخرين، وأكثر ما يسعده، هو

Twitter: @alqareah

ملاعبة الأطفال». قالت عمتي وعيناها معلقتان بأناتولي.

وبدلاً من الإستمرار في الحديث عن بيجان غيّر أناتولي الحديث حين تساءل عن أقرب محطة للقطارات أو مركز قيادة للجيش السوفياتي.

أدركت أنا وعمتي أنه يرغب بالرحيل، حاولنا إقناعه بالبقاء معنا حتى يتعافى كلياً، لأنه ما يزال في طور النقاهة، وقد تعاوده الحمى.

ـ أعتقد أني تعافيت وصار بمقدوري أن أجرجر قدمي وأعيل نفسي بنفسي، والأهم من هذا، هناك من يعتقد أني الآن إنسان ميت. إن لي والدة تعيش هناك في كروسنادار، لا شك انها ترتدي ثياب الحداد، إعتقاداً منها أني دُفنت في مقبرة جماعية.

قال هذا ومد يد مصافحاً عمتي، كانت الأيادي متشابكة، وكذلك العيون، لكنه أزاح عينيه عن عمتي وسحب يده من يدها، ونظر إليّ مبتسماً، وكذلك صافح بيجان وشكره و لم ينسَ خاتيا التي تمنى لها الشفاء، خاصة وأنها بدأت ترى الشمس ولو بغير وضوح.

وأخيراً هبط سلم الدار واتجه نحو البوابة الخارجية، أحسست أن عمتي ـ لولا الحياء ـ تتمنى اللحاق من مكاني. في البدء كان يسير بخطى موزونة وثابتة، حتى أنا لم أتحرك للحاق به، ولكني بقيت أتابع خطواته التي بدأت تتعثر شيئاً فشيئاً.

ـ إنه مجنون.. قال بيجان.. أنظر إليه يا سوسويا، إنه غير قادر على متابعة السير.

ـ «وماذا عليّ أن أفعل؟». قلت لبيجان.

Twitter: @alqareah

ـ لا شيء سوى الاستعداد لإعادة حمله مجدداً إلى هنا.. لأنه لن يقوى على تخطي حدود الضيعة وقد لا يصل إلى ضفة النهر.

بالفعل، كان أناتولي ما يزال واهن الجسد، حتى أنه، استند إلى جدار حديقة الجيران وأخذ نفساً عميقاً فيما عيناه زائغتان في الأفق البعيد، ومن ثم التفت إلينا بعينين حزينتين. تحركنا معاً، وبشكل عفوي، أنا وعمتي، واتجهنا إليه وسار بيجان خلفنا.

أحاطته عمتي بذراعها وأسندت رأسه إلى كتفها «أنت ما تزال غير قادر على المغادرة يا أناتولي، وليس بمقدور قدميك أن تحملك أكثر مما حملتك الآن.. تعالَ... عد معنا إلى المنزل».

قالت هذا وسحبته برفق عائدة به. تقدم بيجان ووضع ذراع أناتولي على كتفه، ولف ذراعه حول خصره «أتركيه لي يا كيتو فأنا أعيده».

عدنا كلنا وجلسنا في الحديقة، فيما دخلت عمتي إلى المنزل وأحضرت كوب حليب.

ـ إشرب يا أناتولي فهذا يفيدك. إنه يغذي عظامك.. إبق معنا، لفترة محددة ريثما تصبح قادراً على السير لمسافة طويلة.

ـ شكراً يا كيتو. بالفعل ما أزال غير قادر على إعالة نفسي بنفسي، وبالوقت ذاته لا أريد أن أكون عبئاً عليكم.

ـ «لا عليك، فأنت لست عبئا»، قالت عمتي.

سألني بيجان عن معنى الحديث بين عمتي وأناتولي، وشرحت له

Twitter: @alqareah

ما يدور فابتسم وتقدم مني هامساً في أذني «أعتقد أن عمتك قد نسيت داتيكو.. أما تعتقد ذلك؟».

نهض أناتولي واتجه نحو شرفة المنزل، وجلس على كرسي خشبي مسنداً رأسه إلى الحائط، وأغمض عينيه، حتى بدا وكأنه يغط في نوم عميق.

تركته هكذا وأخذت خاتيا بيدها وخرجنا نحو ساحة الضيعة حيث كان بعض العجزة يتجمعون أمام دكان العم غيراسيم بانتظار سماع بلاغ صادر عن قيادة الجيش فلعلَ وعسى يكون فيه ما يبشرنا بقرب انتهاء موعد جنون هتلر.

ـ أين صاحبك الروسي يا سوسويا؟ سألتني زوجة العم غيراسيم.

ـ إنه في المنزل.

ـ وعمتك؟

ـ وأين تريدينها أن تكون يا خالة مينا؟ إنها في المنزل أيضاً...

وتدخلت خاتيا «وبيجان هناك أيضاً...».

ضحك العم غيراسيم وأضحكنا معه «أسمعت يا مينا يا صاحبة النوايا السيئة؟».

ـ لا لست كذلك، ولكن أردت الإطمئنان ليس أكثر...

ـ إطمئني تحسنت حاله، واليوم حلق ذقنه، ويقول سوسويا إنه شاب وسيم.. قالت خاتيا.

ـ وكيتو، ألم تقل كذلك؟

Twitter: @alqareah

أحسست أني أكاد أنفجر غضباً، لكني كبت غضبي وأردت أن أبدو هادئاً، «بلى يا خالة مينا، عمتي قالت ذلك أيضاً.. وأكثر، ومنعته من الرحيل قبل شهرين أو ثلاثة لريثما...».

وقاطعتني الخالة مينا «وإذا عاد داتيكو؟».

جاء سؤالها وكأنه قذيفة متفجرة إلا أن خاتيا شدت على يدي وكأنها تقول لي «دعها في حالها.. دعها تنفجر غضباً، وابقَ أنت هادئا».

ـ إسمعي يا خالة مينا ـ قالت خاتيا ـ إهتمي بزوجك وبالدكان، وصلي لله أن يعيد إبنكِ سالماً، دعي العالم بحالها.

زعقت الخالة مينا «قطع الله لسانك... وشكراً لله أنك لا ترين شيئا».

رفع العم غيراسيم يده محاولاً صفع زوجته، لكن أحد الحاضرين تدخل وحال دون ذلك...

كان الزبد يخرج من بين شفتيه والغضب واضحاً على محياه. كانت شفتاه ترتعشان، حتى أنه لم يعد قادراً على الكلام. ناولته كوب ماء وأنا أرمق الخالة مينا بنظرات العتاب والشماتة.

اهتمي بنفسك يا امرأة ـ قال العم غيراسيم ـ وتابع «.. حتى كيتو لم تسلم من لسانك؟ أما يكفيكِ ما فعلت بالمسكينة برباره؟».

ـ ما بها برباره يا عم غيراسيم؟ تساءلت خاتيا.

ـ أجبرتها على الرحيل.. نعم يا ابنتي لقد رحلت برباره صباح

Twitter: @alqareah

اليوم. آخ لو تدرين ماذا فعلت قبل رحيلها؟

ـ وماذا فعلت؟ وإلى أين رحلت؟

ـ جاءت إلى هنا وأخبرت مينا أنها راحلة طالبة منها أن ترتاح وألا توجه سهام لسانها إلى فتاة أخرى.

ـ ولكن، إلى أين رحلت؟ أما أخبرتك أولست عمها؟

ـ ليتني لم أكن عمها، لأني عم فاشل.. رحلت للعمل في أحد المستشفيات الميدانية فهي ممرضة.

ـ سامحك الله يا خالة مينا، قالت خاتيا.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

9

عند نهاية الصيف، تبدأ أوراق الشجر بالإصفرار وتغطي سطح مياه نهر سوبسا، إنه لمنظر رائع. أوراق تتكوم على سطح المياه، تتقارب حيناً وتتباعد أحياناً، تبعاً لحركة النهر، لكنها في النهاية كلها تذهب بعيداً بعيداً، تقوم برحلة لا عودة منها.

تقول عمتي، إن رحلة الأوراق هذه، تستمر أياماً لا بل شهوراً. منها ما يلتصق بتراب حافة النهر، لا ورقة تعرف أين تلتصق، ومنها ما يكمل طريقه حتى مصب النهر في البحر.

على ضفة هذا النهر، وبالقرب من بستان العم غيراسيم هناك صخرة كبيرة مسطحة الوجه، تقول الأسطورة إنها كذلك، لأن حورية الماء، كانت فيما مضى ترتاح عليها. أما نحن، فقد حولناها إلى مكان مواعيدنا ولقاءاتنا أثناء الصيف، عنها نقفز في مياه النهر، وعليها كانت شمس الصيف، وماتزال، تشوي أجسادنا فتغير من لون بشرتنا، إنما هذه الأيام، ليست أيام سباحة، إنما أيام صيد سمك الرنة أو أبو شنب.

عند حافة صخرة حورية الماء، تكثر الطحالب المائية فتتجمع

Twitter: @alqareah

الأسماك لتقتات منها، ولتحضر لها مأوى تأوي إليه خلال فصل الشتاء حين يتجلد سطح الماء.

على هذه الصخرة أجلست أناتولي ورحنا نتجاذب أطراف الحديث، عن الحرب، عن الحياة، وعن الحب وعن كل شيء، حتى عن صيد سمك الرنة وأبو شنب في مثل هذه الأيام، حيث تتجمع أسماك أو أبو شنب قرب ضفة النهر هرباً من برودة الماء.

أخبرته كيف أمسك السمكة من ذيلها وأحك بطنها فتستسلم وتتراخى.

أوقد بيجان النار، فرغم صفاء السماء، فالطقس شديد البرودة، ونزلت أنا في الماء ورحت اصطاد السمك، فيما أناتولي يدعوني للخروج، خوفاً أن أصاب بنزلة صدرية.

بيجان، كالطفل يقفز على الصخرة وهو يفرك يديه ويصيح: «رائع... رائع يا سوسويا.. انتبهي يا خاتيا لئلا يفلت أبو شنب ويعود إلى الماء». ويعلق أناتولي: «من عليه الإنتباه خاتيا أم أنت يا صديقي بيجان؟».

خاتيا تحمل بيديها سمكتين كبيرتين تقربهما من أذنيها محاولة سماع شيء ما. أبو شنب يحاول الإفلات والعودة إلى الماء. لكنه لا ينجح فيلفظ أنفاسه.

ـ ماذا يقول أبو شنب يا خاتيا؟ قال بيجان.

ـ يقول أعيديني إلى الماء لأحيا من جديد.

ـ آه يا خاتيا لو رأيت كيف فغر فمه، لكنت استجبت لطلبه.

Twitter: @alqareah

سكتت خاتيا، ومدت يدها بحثاً عن سمكة ما تزال حية، وحين عثرت على واحدة، قذفتها في الماء فجن جنوني.

ـ تجلد جسدي من صقيع الماء كي أصطاد السمك، وأنتِ تعيدينه إلى الماء؟ أجننتِ؟

لكن خاتيا لم تعر صراخي أي إنتباه، بل ارتسمت على شفتيها إبتسامة رضا عما فعلت.

ـ تبتسمين؟ ما الذي يجعلك تبتسمين؟ لو بمقدورك البقاء ربع ساعة في هذه الماء، لما كنتِ فعلت هذا.

كان جسدي يرتعش غضباً وبرداً فناداني أناتولي للجلوس قرب النار، فجلست بالقرب من خاتيا، التي ما إن شعرت بوجودي قربها حتى أخذت تدلك ظهري المبتل بيديها الدافئتين ومن ثم تطوقني بيمناها وتشدني إليها، فأضع رأسي على كتفها.

بعد قليل أخذ الدفء يتسرب إلى جسدي واللون يعود إلى شفتي ويدي، وطلبت من خاتيا تدليك كتفي مجدداً، وما إن فعلت حتى أحسست بشعور غريب ينتابني، تمنيت لو أبقى هكذا مدى العمر. نظرت إليها، فإذا بها تبتسم، تملكتني الرغبة في أخذها بين ذراعي وإشباع شفتيها تقبيلاً. ملت نحوها، أمسكت خديها بيدي، وقبلتها من طرف فمها. وكأن لا أحد يرانا، تضرج وجه خاتيا خجلاً، وصاح بيجان «تصالحتما» أما أناتولي فخاطبني بالروسية «أتحبها يا سوسويا؟.. إنها تحبك».

ـ وأنت يا أناتولي أعرفت معنى الحب؟

Twitter: @alqareah

ـ بالطبع نعم، ولكن التي أحببتها لم تبادلني مشاعري.

ـ والآن؟

ـ الآن يا سوسويا؟ من أنا اليوم حتى أُحبُّ وأُحَبّ؟ أنا مجرد إنسان شردته الحرب ورمته في ضيعتكم، ومن التي ستحب إنساناً في مثل وضعي؟

ـ الحب لا يعرف الأوضاع يا أناتولي...

وصاح بيجان «تباً لكما.. لماذا تتكلمان الروسية، وماذا تقولان عني وعن خاتيا؟».

ـ دعك بيجان لماذا تسيء الظن بنا.. لم نأتي على ذكر أي منكما..

ـ بلى أتيتما على ذكر خاتيا.

ـ ماذا؟.... خاتيا؟

ـ نعم... خاتيا، فالإسم هو ذاته في كل لغات العالم... والتفت إلى خاتيا أليس كذلك يا خاتيا؟

ـ بلى... لقد سمعت أناتولي يتحدث عني.. فماذا قال؟

ـ نعم ذكرتك يا خاتيا ـ قال أناتولي ـ لقد وجهت اللوم لأنه قبلك أمامنا وسألته إن كان يحبك.

ـ إنه يقول الحقيقة يا خاتيا.

وتدخل بيجان: وأنت بماذا أجبت يا سوسويا؟

ـ أجبته لا...

Twitter: @alqareah

ـ طبعاً ومن يجرؤ على حب واحدة مثلي؟ قالت خاتيا «إلا إذا كان أعمى البصر».

نظر أناتولي إليّ بنظرة عتاب وغضب. أحسست أنه يتمنى لو يصفعني على وجهي بكلتي يديه: إنه يكذب يا خاتيا.. إنه يحبك.

تضرج وجهي خجلاً وكذلك وجه خاتيا. دنوت منها ووضعت يدي على كتفها وشددتها إليّ بقوة وأحنيت رأسي وقبلت شعرها.

لست أدري كيف فعلت ذلك، وكذلك لست أدري، كيف استسلمت هي ليدي وكيف وضعت رأسها على كتفي. كل ما أدريه أن إحساساً بالسعادة غمرني وأن الدم تدفق في شرايني، وازدادت نبضات قلبي. لكن صوتاً غريباً قطع هذا الإحساس.

ـ مرحباً يا سوسويا؟ كلكم هنا؟

والتفتنا إلى الصوت، فإذا دايتكو أمامنا، وكأن الأرض انشقت وأخرجته من جوفها..

نعم كلنا هنا... وأنت ماذا تريد؟ قال بيجان ومسح يده الملطخة بالسمك بسرواله.

التفت داتيكو إليّ «وأنت.. أما تتكرم برد التحية؟».

رددت عليه التحية دون أن ارفع يدي عن كتف خاتيا، وبلهجة لا تنم عن الترحيب. ثم خاطب خاتيا: وأنت؟ أم أنك أصبتي بالخرس إلى جانب العمى؟

من أنت؟ وهل تريدني أن أرد التحية على من لا أعرفه؟ قالت خاتيا.

Twitter: @alqareah

ـ لا تعرفينني؟ وكيف عرفتني من صوتي عند ذاك الفجر؟ قال هذا والتفت نحو أناتولي وهذا من يكون؟

ـ إنه الروسي صاحب سوسويا «قال بيجان وتابع». أما تعرفه أم أنك لا تريد أن تتعرف إليه؟

ـ ها هو إذن؟

نظر أناتولي إليّ وقال: من يكون هذا؟ ولماذا لحيته مسترسلة دونما إنتظام؟

ـ إنه لا أحد.

ـ «قل له الحقيقة يا سوسويا» قال بيجان. قل له إنه عين الدولة في هذه المنطقة، وإلا اعتبره هارباً من الخدمة.

حدق داتيكو ببيجان ورماه بنظرات الغضب. «إخرس أيها المجنون وإلا قطعت لسانك ورميته للقطط والكلاب». التفت إليّ وقال «أعطني سيجارة».

ـ لا سجائر معي لأمثالك أتفهم؟

تدخل أناتولي، «أعطه يا سوسويا لربما يهدأ».

ـ قلت اعطني سيجارة وإلا أخذتها بالقوة.

ـ «أعطه يا سوسويا». قالت خاتيا.

ناولته سيجارة، أشعلها وأخذ يمجها بنهم «إذن هذا هو الروسي الذي تستضيفه كيتو في منزلها؟».

Twitter: @alqareah

ـ نعم إنه هو. أجبته وأخذت أجمع الأشياء وأضع السمك في السلة.

وأنت تناديه يا عمي؟...

ـ أرجوك دعنا وشأننا.

ـ وهل عمتك حامل الآن أم...؟

و لم أسمح له أن يكمل كلامه، هجمت عيه محاولاً صفعه لكنه عاجلني بضربة على صدري، أوقعتني أرضاً، فهرع أناتولي إليّ وأعانني على النهوض وعاد ليتساءل «من هذا يا سوسويا، ولماذا يتصرف بهذه العدائية؟».

ـ إنه مجرد إنسان تافه، جندي جبان هارب من الجبهة. وكما ترى فهو أشبه بالمتسولين.

التفت أناتولي إلى داتيكو ورجاه الرحيل، لكنه لم يعره أي إنتباه بل عاد ليرمقني بنظرات الغضب.

ـ إسمع يا سوسويا إما أن أُستقبل في بيتكم كما في السابق، وإلا سأجعل النار تلتهم داركم وكذلك العديد من البيوت.

قاطعته «قريباً سيحل الشتاء، ولن تتمكن من البقاء مختبئاً في الغابة. ستصبح مثلك مثل ابن آوى، تبحث عن طعامك بين النفايات ولن تجده».

ـ إفهمني جيداً، إن لم تطردوا هذا الروسي، فالويل لكم سأفجره أمام كيتو...

Twitter: @alqareah

بدا الإندهاش على أناتولي: ماذا تريد مني أيها الحقير.. ولن أسمح لك بإهانة كيتو، حتى ولو كنت مسلحاً باكثر من بندقية.. فانصرف من أمامي وإلا...

ـ وإلا ماذا أيها العاجز عن إعالة نفسك؟ أنا أحب كيتو ولن أسمح لأحد أن ينتزعها مني، فما عليكِ إلا الرحيل وإلا تلونت مياه هذا النهر بلون دمك.

ـ لستَ أنت من يقرر عن كيتو، بل هي التي تقرر ما تريد.

ـ ماذا تقول يا أيها الوغد؟ قال داتيكو وهو يشهر بندقيته بوجه أناتولي.

ـ إن كنت رجلاً فارمِ البندقية جانباً وتعال.

كان داتيكو يرتعد غضباً، حاول بيجان ثنيه عن فعلته: دعك من الحماقات يا داتيكو، فإن كانت كيتو ما تزال تحبك فلن ينتزعها أحد منك. ومن ثم فيوم طردتك، لم يكن أناتولي قد ظهر بعد.

ـ أغرب عن وجهي أيها المجنون وإلا قتلتك معه.

ـ لا داعي أبداً لهذه التصرفات، أرجوك إرمِ سلاحك.

وتدخلت أنا محاولاً تهدئة غضب داتيكو، إلا أنه نهرني مجدداً موجهاً إليّ صفعة ثانية رمتني أرضاً. فما كان من أناتولي إلا أمسك بفوهة البندقية وانتزعها من داتيكو ورماها بعيداً. وهنا ازداد غضب داتيكو فانقض على عنق أناتولي ورماه أرضاً وانهال عليه ضرباً حتى خرج الدم من أنفه.

ماذا تفعل أيها الجبان؟ قال بيجان وتقدم وأمسك بكتفي داتيكو

Twitter: @alqareah

وجذبه إلى الوراء بقوة ورماه على ظهره، ووثب عليه وأخذ يضغط على خناقه بكلتا يديه حتى ازرق وجه داتيكو، إلا أنه، وفجأة، استل سكيناً عن خاصرته وطعن بيجان في صدره.

أَنّ بيجان واتسعت عيناه وهو يحاول النهوض ويده تضغط على صدره والدم يتفجر من صدره.

نهض داتيكو وراح ينظر إلى السكين التي تقطر دماً حينا، وإلينا حيناً آخر، بدا واضحاً أنه أصيب بالذهول والخوف، تناول البندقية وولى هارباً فيما بيجان يتوجع ويئن ويضغط على صدره بيده.

حاولنا حمله لنقله إلى المنزل، لكننا لم نقوى على ذلك فأجلسناه على الصخرة ورأسه على صدر خاتيا التي كانت تتساءل عما جرى ويجري.

ـ قتلني ذاك اللعين...

أجهشت خاتيا بالبكاء.

ـ لا تقل هذا يا بيجان، ستشفى وتعود إلينا لتلاعب الأطفال.

أحس أناتولي بعبء الذنب، لكن بيجان رفض ذلك «لم يقتلني حباً بالقتل، أنا أدرى الناس به لكنه إنسان خائف مرعوب، فقد رشده وفعل ما فعل».

تساقطت دموع خاتيا على جبين بيجان فصاح ـ رغم ألمه ـ بها: ما بك يا خاتيا، عيناكِ ليست للبكاء بل لرؤية الشمس. أترينها يا خاتيان إنها تغرب، إنها تختفي وراء الجبال، وقريباً سيحل الليل، وحين يبزغ نور الفجر لن أكون معكم. خذي سمكتي واعتني بنفسك واعلمي أن سوسويا يحبك.

Twitter: @alqareah

غداً حين تشرق الشمس قولوا لكيتو ألا تنتظرني، لا غداً ولا بعده، وقولوا لميناودورا أني أحببتها بجنون وما أزال أحبها.

قال هذا وأحنى رأسه.

«لا تمت يا بيجان... نحن بحاجة إليك يا بيجان».

إنه قدري يا سوسويا. قال هذا بصوت متقطع متهدج، و لم يتمكن من إكمال ما يريد أن يقول.

ـ ما بك يا بيجان؟... انظر إلى الشمس فهي لم تغرب بعد.

عبثاً كنا نتكلم مع بيجان..

«رحل». قال أناتولي «وأنا السبب، أراد الدفاع عني... أنا السبب... أنا السبب».

لست أدري لماذا أشحت نظري عن بيجان ورحت أنظر إلى الشمس وهي تختفي وراء جبال كونتسخولا وتقدمت من خاتيا «أترين الشمس يا خاتيا؟».

ـ نعم إني أراها يا سوسويا، أرى شيئاً لا أعرف ما هو.

إذن سيتمكن الطبيب من إجراء العملية، وسترين كل شيء.

وهل سأراك يا سوسويا وأرى لون الغروب ولون الماء... ماء نهر سوبسا؟ ما لون الماء يا سوسويا؟

ـ إنه كلون السماء.

ـ وما لون السماء يا سوسويا؟

ـ إنه أزرق كلون عينيك.

Twitter: @alqareah

10

جاء كانون الأول وتساقط الثلج طوال الليل. كانت الريح تعصف وأغصان الأشجار العارية تتلوى وتنحني تحت عصفها، لكنها سرعان ما تعود تستوي في شموخها. يا ليت هتلر وأعوانه يرون هذا؟ حتى أشجارنا ترفض الإنسكار فكيف بأبطالنا الصامدين أمام غزواته، الرافضين الاستسلام لإرادته.

في الليل، اختلط نباح الكلاب مع أصوات الذئاب وابن آوى. السكون يلف الضيعة، فلا وقع أقدام لبشر يعبرون الأزقة، أو بسعال رجل مسن تحشرج صدره وهو يمج لفافة تبغ.

انجلى الليل، ولكن أشعة الشمس لم تلامس الأرض، حجبتها الغيوم، لكنها لم تحجب النور.

خرجت إلى شرفة المنزل فإذا بالأرض بيضاء، لا لون تراب ولا لون أسيجة. الثلج غطى كل شيء حتى أدراج المنازل.

أناتولي قرب الموقد يطعمه حطباً، والموقد لا يشبع.

ـ ما به يلتهم الحطب ولا يعطي دفئاً قال أناتولي.

Twitter: @alqareah

ـ يبدو أن الطقس عندكم أقل برودة. قالت العمة.

ـ لا.. لكنه جاف، أما هنا فالرطوبة شديدة مما يجعله ينفذ إلى العظام.

أطعمت الموقد بعضاً من حطب شجر الزان وتلفت نحو عمتي «لن تأتي خاتيا اليوم».

ـ بامكانك الذهاب إليها.

ـ وتدخل أناتولي «لماذا هي عمياء؟».

ـ ولدت عمياء.. وبعد مراجعات العديد من الأطباء دون جدوى.. ولكن طبيباً قال إنه إذا رأت الشمس فيكون بالإمكان إجراء عملية جراحية.

ـ يبدو أنه أعطاها أملاً كاذباً.

ـ لكنها تقول إنها ترى الشمس... منذ نيف وستة أشهر وهي تدعي ذلك.

ـ وأين والدتها؟

ـ توفاها الله بعد ولادتها بفترة قصيرة، ونذر والده نفسه لتربيتها.

إنها فتاة لطيفة وذكية قال أناتولي.

فعلاً كذلك: قلت أنا...

وابتسم أناتولي إبتسامة خبيثة وقال: «وجميلة أيضاً أليس كذلك يا سوسويا؟».

Twitter: @alqareah

تضرج وجهي بالدم و لم أشأ أن أقول كلمة، بل رحت أرقب الموقد يلتهم الخشب ويضيء الغرفة بوهج أحمر.

لاحظت أن أناتولي يسترق النظر إلى عمتي من حين لآخر، فيما هي تحوك جوروباً صوفياً، أردت إشباع فضولي فرحت أراقبهما معاً، وأدركت أن كلاً منهما يختلس النظر إلى الآخر.

أناتولي أشقر الشعر، أخضر العينين، نحيف الجسد، وسيم الطلعة ويبدو أنه من عمر عمتي أو أصغر منها بعام واحد ليس أكثر، قذفته الحرب إلينا، ومن يدري قد يصبح واحداً منا. لست أدري لماذا لا يزعجني تبادلهما الحب، على عكس ما كنت أشعر تجاه داتيكو.

لاحظ أناتولي أني أراقب نظراته، فابتسم مرتبكاً ووضع يده على كتفي، فأرد له الإبتسامة بمثلها وأضع يدي على كتفه ومن ثم أشرع في التحديق بنار الموقد الذي يتغير لونه،حيناً يكون أحمر وهاجاً، وحيناً يكون بلون الياقوت المائل إلى الزرقة.

لست أدري لماذا قررت ألا أزعجهما بمراقبتي لحركات عينيهما، فكما لي الحق بحب خاتيا، فلأناتولي الحق أن يحب عمتي ويحق لها أن تبادله الحب كما خاتيا تبادلني المشاعر. ولكني خائف.. خائف من ساعة يقرر فيها الرحيل. فكيف ستتلقى عمتي الصدمة الثانية؟

الصدمة الأولى جاءت من داتيكو الذي خان وطنه والثانية ستكون يوم يقرر أناتولي الرحيل عن هذه الضيعة. ولكن كيف سيكون شعوره وهو راحل؟

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

11

مرحباً بيجان.. هذا أنا سوسويا.. أما زلت تذكرني؟ وهذا أناتولي إلى جانبي... لم تتمكن خاتيا من المجيء بسبب كثافة الثلج الذي منعني من زيارة قبرك طيلة الأسبوع.

نحن هنا لنقول لك إنك ما تزال معنا ولن ننساك. لنقول إن أزقة الضيعة اشتاقت لوقع خطواتك، والأطفال يفتقدون حنانك ويسألون عنك ويقولون «أين بيجان الذي كان يلاعبنا؟». ماذا نقول لهم؟ قتله الجبان الفار؟

منذ أيام حل العام الجديد، لم تحتفل الضيعة بقدومه كما كانت تفعل فيما مضى. الشباب هم هناك على خط النار، والصبايا هنا لم يتحلقن في حلقات الرقص، فكل واحدة منهن تشتاق لواحد بعيد عنها، إما لآخ، أو قريب، أو حبيب أو أب والكل كان يفتقدك يا بيجان.

حتى الشجيرات التي زرعناها هنا، عند قبرك نمت بشكل غير طبيعي، ولولا الشتاء وتساقط الثلج لكانت أزهرت في غير آوان الزهر والتبرعم.

Twitter: @alqareah

خاتيا ما تزال تصر على أنها ترى الشمس وأن الحب بيننا ينمو ويكبر، وستسمي أول مولود ذكر لنا بيجان، لتبقى بيننا. كما أنت في قلوبنا.

نظفنا القبر من الثلج وأعدنا وضع الصليب في مكانه. تقدمت أنا وقبلت البلاطة التي على القبر وهمست «أتعرف يا بيجان، يبدو أن عمتي تحب أناتولي كما هو يحبها».

تقدم أناتولي مني وسحبني من كتفي وقال «دعنا نذهب يا سوسويا، قمنا بما يجب القيام به... والوقت صار متأخراً. علينا العودة قبل حلول الظلام».

بالفعل إن المسير وسط أكوام الثلج يتسبب بالتعب والجوع معاً. ونحن في طريق العودة إلى المنزل، مررنا قرب منزل العم لوقا الذي ضيّع الثلج دربه، والسقف يكاد ينهار تحت وطأة كثافة الثلج عليه. ولكن الذي لفت انتباه أناتولي كانت تلك الراية السوداء المرفوعة عند مدخله، فسالني عن سبب وجودها وأخبرته أنها دلالة حزن العائلة على استشهاد ابنها في ساحة المعركة.

وضع أناتولي السلم إلى الجدار وأخذ يتسلقه إلى السطح، وحين سألته ماذا يفعل أجابني إنه يرغب بكشط الثلج أولاً ومن ثم يدخل المنزل.

تنبه العم لوقا لوجودنا، فدعانا للدخول إلى المنزل، لكننا أفصحنا له عما نرغب القيام به أولاً فشكرنا ودعا لنا بالتوفيق.

أوشكنا على الإنتهاء من تنظيف الثلج، أحسست أن يدي تجمدتا

Twitter: @alqareah

من الصقيع، فاقتربت من داخون المدفئة في محاولة لزرع الدفء فيهما، فشممت رائحة زكية تتصاعد مع الدخان.

ـ أناتولي... تعال إلى هنا.

ـ لم أشعر بالبرد بعد، أريد إكمال مهمتي.

ـ أسرع... تعال.

وجاء أناتولي متسائلاً «ما الخبر يا سوسويا؟».

ـ تقدم إلى المدخنة.. أتشم ما أشم؟

دنا أناتولي: «ما هذا؟ إنها رائحة لحم الخنزير المقدد وفطائر الذرة...».

ـ إذن لم أخطء فيما اعتقدت... إذن سنتناول وجبة شهية.

ها نحن جالسون إلى طاولة مستديرة بالقرب من الموقد أنا وأناتولي والعم لوقا، نلتهم فطائر الذرة وشرائح لحم الخنزير المقدد، فيما زوجة العم لوقا تستريح على سرير في زاوية الغرفة، تنظر إلينا بعينين دامعتين، ولا تتفوه بأية كلمة سوى بكلمات الشكر على ما فعلنا، وإلا كان سينهار سقف المنزل فيما إذا استمر تساقط الثلج.

قدم لنا العم لوقا أقداح الفودكا معللاً ذلك أنها تزرع الدفء في الجسد وتزيد من شهيتنا على تناول الطعام، لكن أناتولي يرفض تناول الفودكا. إنه لأمر غريب روسي يرفض الفودكا!!! فطلب العم لوقا من زوجته أن تأتينا ببعض النبيذ المعتق وتوجه إلينا معتذراً عن عدم تمكنه من القيام بواجبه كاملاً معنا، لم أعد قادراً على فعل

Twitter: @alqareah

شيء.. إن موت إبني جعل مني إنساناً عاجزاً، حتى عن القيام بأبسط الأشغال، كل ما أفعله هو البكاء وصب اللعنات على هتلر، نجلس معاً، أنا وزوجتي، ننظر إلى الصورة ـ وأشار بيده إلى صورة معلقة على الحائط ـ نستعيد الذكريات العتيقة، نتذكره وهو يقوم بالحراثة وبقطف الأثمار وتهيئة الحطب لأيام الشتاء. فاليوم مثلاً، لولاكما لكان هناك احتمال كبير بانهيار السقف.

ـ أهذه صورته؟ تساءل أناتولي وهو يشير إلى الصورة.

ـ نعم إنها صورته.. لقد كان إنساناً محباً للعطاء لا يتوانى عن مد يد المساعدة للآخرين. كان يتعشق الأرض، يعاملها بحب، وهي تبادله هذا الحب، فتعطيه ما لم تعطي لغيره وتابعت أقول: كان على وشك الزواج من بربارة إبنة أخ العم غيراسيم.

تنهدت العمة مينا في سريرها وسألت الله ألا يصيب أحداً ما أصاب عائلتها. في هذا الوقت كان أناتولي يفرغ الكأس تلو الآخر في فمه، حتى بدا وكأنه ثمل.

رجوته ألا يشرب المزيد لكنه رفض وتوجه إليّ بالسؤال:

من أنا يا سوسويا؟

فوجئت بسؤاله هذا وتملكني العجب منه

أنت أناتولي...

ـ حسناً، أنا أناتولي رومانوف... أليس كذلك؟

ـ نعم إنك هو.

Twitter: @alqareah

ـ وحين وجدني بيجان احتضر عند حافة النهر من كنت؟

ـ كنت أنت.

ـ أعرف أني كنت أنا، ولكن من؟

ـ أناتولي رومانوف.

ـ جيد... أنا الآن أشرب النبيذ هنا، وهناك في بلدتي من يرتدون الثياب السوداء حداداً عليّ، وقد يكونون يرفعون راية سوداء كما يفعل العم لوقا.حتى بالنسبة لقيادة الفرقة التي كنت أحارب في عديدها. أنا الآن ميت... نعم، لأنهم لا يعرفون أني تمكنت من الهرب بعد أن أسرني الألمان. وطبيعي جداً أن تكون القيادة قد أعلمت أمي وأبي أني ميت أليس كذلك؟

نظرت إلى العم لوقا، فرأيت علامات الإندهاش على وجهه، وقد فتح فمه تعجباً لما يتفوه به هذا الروسي الثمل وبأسلوب غريب أجابه: نعم قد يكون ذلك...

ـ لا.. ليس قد يكون.. بل هو واقع، منذ تسعة أشهر لم يستلم أهلي مني أية رسالة، قال هذا ونهض متجهاً نحو الباب.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لأنتزع تلك الراية السوداء.. من يدري يا عم لوقا، قد يكون ابنك مفقوداً، وهو الآن ضيف على عائلة ما في مكان ما. مثلي أنا تماماً. هل يعرف أهلي أني هنا معكم وبينكم؟ هل يعرف أهلي أنكم رعيتموني، أنكم ضمدتم جراحي وتعافيت وصرت قادراً على القيام

Twitter: @alqareah

بحرث الأرض وإعداد الحطب لموسم الشتاء و.... و.. بالطبع لا.. قد يكونون ينتظرون عودتي وقد يكونون يبكون عليّ ويستعيدون ذكرياتهم معي. إنهض يا سوسويا وانتزع تلك الراية. ما بك يا عم لوقا؟ كيف تصدق تلك الورقة التي أرسلوها لك، وتقبلت موت ابنك ببساطة؟ ماذا تقول تلك الورقة «إبنكم قتل؟» بإمكاني الآن أن أرسل لك ورقة أخرى، أو مئة ورقة، أقول لك فيها إن إبنك موجود على الجبهة في ستالينغراد وأخرى تقول إنه على الجبهة في كروسنادار أو كييف أو في أي مكان آخر.

ازداد تعجب العم لوقا واندهاشه «معك حق، ولكن لماذا لم يرسلوا أية ورقة لغيري؟».

«معك حق أيضاً.. ذلك لأن قيادة الآخرين لم تتمكن من ذلك، أو لأن الآخرين ما يزالون غير مفقودين.

في الحروب لا شيء معقول ولا شيء مستحيل. اسمعني هل سمعت جيشاً يعلن تراجعه أمام تقدم العدو؟

ـ إنهض يا سوسويا وهات تلك الراية.

حاولت النهوض، لكن العم لوقا سبقني إلى ذلك ثم عاد والراية في يده، طواها، ركع على ركبتيه أمام الموقد ورماها به، وهكذا أخذت ألسنة اللهب الحمراء تلتهم الراية السوداء.

التفت العم لوقا إلى زوجته مينا وقال «إخلعي هذه الثياب.. لقد أقنعني هذا الروسي».

ـ هكذا تبرهن عن رغبتك بعودة إبنك. قال أناتولي ومضى

Twitter: @alqareah

يقول: «إذا كانت القيادة متأكدة من وفاته فأين هي جثته؟ كيف تأكدوا دون وجود جثة؟ في الأسبوع الماضي وصلت جثث إلى القرى المجاورة، أليس كذلك؟».

على شكل مفاجيء أجابت العمة مينا: نعم.. نعم... قالت هذا وأخذت تخلع ثيابها أمامنا إلا أن العم لوقا لفت نظرها إلى وجودنا، فدخلت إلى غرفة مجاورة وعادت وهي ترتدي ثياباً ملونة، ووقفت أمام الصورة، نزعت عنها الشريط الأسود وقبلتها «سأبحث عن بربارة وأعيدها إلى الضيعة. سأسكنها معنا، حتى عودتك. بعد عودتك بلحظات سنذهب الكنيسة ونعقد القران».

متأخرين عدنا إلى المنزل يتعتنا السكر. تعجبت عمتي من حالي: « لم أعرف أنك تشرب إلى هذا الحد يا سوسويا؟ أين كنتما؟».

ارتمى أناتولي على المقعد ثم أمسك يد عمتي وراح يشد عليها، فسحبتها بشدة.

ـ إنه ثمل يا عمتي..

ـ أنت عليك الإستراحة، فغداً عليك الذهاب إلى المدرسة.

عاد أناتولي وأمسك يد عمتي ووضعها على خده وراح يغني:

ماريا يا ماريا

يا صاحبة الشعر الأشقر

منذ صغري أحببتك.

Twitter: @alqareah

وما أزال.

تجهم وجه عمتي وبعصبية قالت: «أنا كيتو ولست ماريا».

ـ بلى أنتِ ماريا، وإلا لماذا عيناك عسليتان كعينيها وشعرك أشقر كشعرها ويداكِ ناعمتان كيديها؟

ثانية وبعصبية أجابت العمة: أنا كيتو ولست ماريا، لا عيني عسليتان ولا شعري أشقر ولا يداي ناعمتان.

تفرس أناتولي بوجه عمتي، أفلت يدها ووضع رأسه بين راحتيه وشرع بالبكاء وما هي إلا دقائق حتى راح يغط بنوم عميق.

تقدمت من عمتي وأخذتها بين ذراعي: لا عليك يا عمتي...

ـ ولكن من تكون ماريا هذه؟

ـ لست أدري... قد تكون زوجته.

ـ لكنه قال إنه غير متزوج.

ـ إذن حبيبته.

ـ وهل سيجدها.

ـ وما همي إن وجدها أو لم يجدها.

نظرت بعيني عمتي فرأيت بعضاً من الدمع، ضممتها إلى صدي وقبلت رأسها: تعالي عمتي، فأنتِ أجمل نساء العالم... تعالي إلى سريرك.

Twitter: @alqareah

12

من في الضيعة أو في الجوار لا يعرف ببغلار وطاحونته؟ من لم يمضِ ليلة أو أكثر في هذه الطاحونة بانتظار أن يتكرم ببغلار ويطحن له قمحه؟

الحقيقة أن شهرة هذه الطاحونة، ليست من موقعها ولا من خدماتها، بل من بيغلار نفسه المشرف على إدارتها. وكم من الأمثال والحكايات قيلت وتقال وستقال حول بيغلار وطاحونته. حتى أنه يصعب أن تتحدث إلى أحد ولو لربع ساعة فقط، إلا ويأتي على ذكر بيغلار وإن لم يفعل هو، فستفعل أنت.

إن كنت تروي حكاية طويلة، يجابهك السامعون، ما بك حكايتك كحكايات بيغلار، لها بداية إنما لا نهاية لها. وإن أضجرت سامعك، يقول لك: ما بك تجرش كحجر الرحى في طاحونة بيغلار.

إن رأك أحد تعجن النخالة، فسيقول لك، ما بك مثلك مثل بيغلار ألم يعد لديك طحين؟

أما بيغلار، فلا يحدثك إلا عن طاحونته، فهي بيته ومأواه وزوجته وعائلته وأهله.. هي كل شيء في حياته. منذ زمن هو يعمل في هذه الطاحونة. منذ وعيت على هذه الدنيا، وأنا أعرف بيغلار يعمل فيها ولا

Twitter: @alqareah

أحد يجرؤ على التفكير يوماً، ولو بينه وبين نفسه أن يحل محله.

إنها بيته فعلاً، ينام فيها، ويأكل فيها، لا تزعجه ضوضاؤها، ولا صوت الماء المتدفق لإدارة حجر الرحى. إتخذ من الكيس الذي يجعل فيه الجعائل النقدية فراشاً له ومن قصب الذرة وسادة لرأسه، وعلى الحائط بندقية قديمة الصنع يرفض بيغلار إلا أن يسميها مسدسا، وإلى جانبها صورة لرجل إسمه ميتشورين، والويل لك إن سألت من هو هذا ميتشورين، فلا شك ستثير غضبه ويزعق بوجهك «ويحك يا هذا؟ ألا لا تعرف من هو مينشورين، إنه أول من زرع العنب في سيبريا وكذلك اليوسف أفندي».

ومع نشوب الحرب، توسع بيغلار بعرض الصور، فازدانت جدران المطحنة بصور ستالين وكبار جنرالات الجيش السوفياتي الذين أبلوا بلاءً حسناً في القتال، وإن سألت «من هذا؟». يبدأ بسرد قصة حياة صاحب الصورة منذ ولادته، حتى إنتصاره في آخر معركة خاضها، وكيف تدرج من رتبة إلى أعلى، حتى أنه يسمح لنفسه بشرح الخطط العسكرية التي وضعها وكيف أوقع فرقة المدرعات الألمانية في الكمين الذي نصبه لها.

والحقيقة، أن حب بيغلار للمطالعة، يكاد يساوي حبه لطاحونته، لذا كنا نمده بالكتب السياسية والأدبية.

نشأت بيني وبينه علاقة ود خاصة، وانعكست هذه العلاقة، تأخيراً في طحن ما أحمله من قمح. فما من مرة قصدت طاحونته إلا وبت ليلتي هناك. لم يزعجني هذا الأمر، على العكس كنت أصغي إلى كل كلمة يقولها. كان يحدثني عن الأدب فاخاله ناقداً أدبياً، وعن السياسة

Twitter: @alqareah

فأحسبه عضواً في المكتب السياسي للحزب، أما حين تتحدث عن المعارك، فحدث ولا حرج. إنه عسكري برتبة جنرال، يضع الخطط لاقتحام معاقل الألمان، والهجوم المضاد، فكنت أرى جنود هتلر مُدبرين، أمام تقدم جيوشنا، وأرى ارتال الدبابات الألمانية محترقة حتى، ذات ليلة، تخيلت جيشنا يدخل برلين ويقبض على هتلر وغوبلز والعديد غيرهما من القادة الألمان. بالوقت ذاته كان دائم التساؤل: كم ستطول هذه الحرب؟ ولماذا ستطول؟

ـ ستطول، لأن الألمان استولوا على العديد من المدن السوفياتية وكذلك على مساحات شاسعة من الأراضي.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ يعني أن علينا استرجاعها أولاً، ومن ثم الزحف نحو برلين لتحقيق النصر الأكبر.. أليس كذلك يا بيغلار؟

يوافقني بيغلار الرأي وهو يلقي الحطب في الموقد ويمج سيجارته المصنوعة من التبغ الفاخر الذي لا أحد يدري من أين يأتي به، ولا يعطي سيجارة لأحد سواي.

ـ خذ شاركني في تذوق ما أملك من تبغ.. إنك فتى طيب وابن أعز الأصدقاء. نعم كان والدك أعز صديق.

ـ «إذن، لن تنتهي هذه الحرب، قبل سنتين، أو لنقل سنة ونصف السنة على الأقل». يتنهد بيغلار، رغم صغر سنك، فأنت تتحدث كالكبار.. ليس هماً كم ستطول.

وأقاطعه متسائلاً: ما الهم إذن يا عم بيغلار؟

Twitter: @alqareah

ـ الهم يا ابني أن ننتصر ونقضي على الوغد الذي اسمه هتلر وإلا فلن يرتاح العالم، وستبقى الحروب تدمر المدن واحدة بعد أخرى، إن في أوروبا أو في الإتحاد السوفياتي.

ـ حسناً، وطبيعي، لن يكون هذا بين ليلة وضحاها.

ـ سوسويا.. أمتأكد أنت أننا سنكسب الحرب؟

ـ دون شك.

ـ ولكن ماذا لو تحولنا إلى الهجوم و لم يتراجع هتلر؟

ـ سيتراجع تحت وطأة ضرباتنا له..

ـ وإن لم يتراجع؟

ـ ولماذا لا يتراجع طالما أن ضرباتنا موجعة؟ جنوده غير قادرة على تحمل صقيع بلادنا.

ـ حسناً، تراجع الآن.. وأخذ يعد العدة لهجوم جديد مع بداية الربيع أو فصل الصيف، فماذا نفعل؟

ـ لن يتمكن من ذلك.. لأننا لن نسمح له أن يفعل.

ـ لنفترض أنه تمكن..

أزعجتني فرضياته: «أنت مع من يا بيغلار؟ مع الجيش السوفياتي أو...؟ يبدو أنك إلى جانب هتلر...».

نهض بيغلار غاضباً، ملوحاً بيده وكأنه يرغب أن يصفعني: ما هذا الذي تقوله يا ابن آوى؟ أنا بيغلار عليك أن تعي شيئاً مهماً، ألا وهو

Twitter: @alqareah

الإعتراف بقدرات خصمك، فهتلر ليس غبياً، وغوبلز هو غوبلز وليس بيغلار.

ـ أعرف ذلك، ولكن.. أنظر ـ وأمسكت قضيباً ورسمت خطاً على الأرض ـ هذه هي الحدود.. أنت ألمانيا وأنا الإتحاد السوفياتي.. أنت هناك وأنا هنا..

ـ ولماذا لا تكون أنت ألمانيا؟

ـ لنفترض ذلك.. ونحن الآن في فصل الشتاء أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ أنا متعود على الشتاء القارس وأنت لا... أنا أرتدي ثياباً تقيني البرد وأنت لا.. أنا قادر على مد جيوشي على خطوط القتال بما يمكّنها من الصمود أسرع منك، لأن خط الجبهة عندك صار بعيداً جداً عن مراكز الإمداد، إن بالعتاد العسكري أو بالتموين الغذائي.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ أنا قادر على ضرب مؤخرة جيوشك، وأنت عاجز عن فعل ذلك؟

ـ وكيف يكون ذلك؟... أعني ضرب المؤخرة..

ـ بواسطة فرق الكوماندوس أو الأنصار الذين هم أبناء المنطقة ويعرفون طبيعة الأرض.

بدا الفرح على وجه بيغلار، وماذا بعد؟ أكمل يا سوسويا، فعلاً إنك فتى ذكي...

Twitter: @alqareah

في هذه الحال لن تكون قادراً على تحمل الضربات التي أوجهها إليك إن في المقدمة أو في المؤخرة. لقد وقعت بين فكي الكماشة أليس كذلك؟

ـ هكذا يتحتم عليّ الرحيل.. وأعلن أن تراجعي هو لأسباب تكتيكية.

ونبح الكلب دون انقطاع، فنهض بيغلار وفتح الباب، فإذا ببعض النسوة يدخلن حاملات أكياس القمح. وضع بيغلار القمح في قمع حجر الرحى وطلب إليهن مراقبة عملية الطحن لأنه منهمك في إيقاف تقدم الجيش السوفياتي كما ادعى، وعاد وجلس القرفصاء في مواجهتي: وماذا بعد.. أين كنا؟ عفواً لقد انسحبنا تكتيكياً.. فما عساك تفعل يا ستالين؟

وصاحت إمرأة : شتان بين الثرى والثريا، وإذا كان هو ستالين، فمن تكون أنت يا بيغلار؟ تشرشل؟

ـ إخرسي.. أنا هتلر، حسناً يا سوسويا، وماذا ستفعل أنت بعد ذلك؟

سؤال وقع عليّ وقوع الصاعقة، فعلاً ما عساي أن أفعل بعد، فأنا سوسويا.. ولست جنرالاً. فكرت قليلاً.

ـ «ماذا بعد...؟ ... ماذا بعد؟» كنت أقول هذا كسباً للوقت حتى أجد الجواب المناسب وأخيراً، وبصوت عال «أستمر في مطاردتك داخل حدودك، حتى ألقي القبض عليك وعلى معاونيك.. أضعكم جميعاً في السجن تمهيداً لمحاكمتكم..».

Twitter: @alqareah

ضحكت النسوة، وصاحت إحداهن، «وهل تحسب نفسك جوكوف يا سوسويا؟».

وزعق بيغلار: «أهم بكثير لقد قبض عليّ وعلى أركان قيادتي.. لقد دخل برلين». نظر إليّ متسائلاً «ولكن ماذا عن أميركا وبريطانيا؟ هل ستسمحان لك بذلك؟».

فوقفت، وكأني فعلاً، دخلت برلين: أضعهما تحت الأمر الواقع، فإذا كانتا غير قادرتين على القضاء عليك، فماذا أفعل أنتظرهما؟ ومن يدري قد تسترجع تنظيم قواك وتعود لتقضي عليّ من جديد؟ وعليهما أيضاً؟

وعادت النسوة إلى الضحك. تقدمت أكفرينا وأمسكت ببغلار من أذنه: لعنة الله عليك يا وجه النحس أنت.. كيف تسمح لنفسك أنت الذي جاوز الستين، أن تنجرف في هكذا أوهام؟ ومع من؟ مع هذا...؟ وأشارت إليّ.

أحسست بالإهانة، فانتفضت صائحاً: أما تريننى رجلاً؟

ـ لو كنت رجلاً كما تدعي، لما كنت تتسكع في أزقة الضيعة، بل كان عليك أن تكون هناك حيث استشهد ابن لوقا.

ـ لكن إبن لوقا لم يمت، إنه ما يزال حياً يرزق وحين تنتهي الحرب سيعود ويتزوج من برباره.

خيم الصمت على الجميع. وراحوا ينظرون باستغراب. تقدم بيغلار وهو يضع يده خلف أذنه: «ماذا قلت.. كأني لم أسمع.. أعد ما قلت...».

Twitter: @alqareah

ابتسمت بسخرية، وكأني حققت انتصاراً أو كأني أمسكت هتلر من أذنه. وأجلت بنظري على الجميع «نعم، إنه حيّ يرزق، وإن لم تصدقوا ما أقول إذهبوا إلى منزل لوقا فلن تجدوا راية سوداء».

عاد الصمت ليخيم من جديد. فلا هم قالوا كلمة ولا أنا رغبت في الإستمرار بالحديث. وماذا أقول لهم بعد؟ أأقول أن أناتولي كان ثملاً وابتدع تلك الحكاية عن إمكانية أن يكون مفقوداً..؟

لولا نباح الكلب وصوت حجر الرحى لكان بإمكاني القول خيم صمت مطبق، وطال السكون، فلا شيء يسمع إلا صوت غناء الطاحونة كما يقول بيغلار عن صوت حجر الرحى، وهو يطحن حبوب القمح أو الذرة، وأدركت أن حكاية جديدة ستخرج من طاحونة بيغلار، وأنه لن تشرق شمس اليوم التالي، حتى تكون حكاية ابن لوقا على كل شفة ولسان، لا في الضيعة وحسب، بل وفي القرى المجاورة أيضاً.

لاحظت أن أكفريناً ترغب بصفعي، لكن شيئاً يمنعها. كانت ترمقني بنظرات لم أفهم معناها، وحتى اليوم ما أزال أجهل معنى تلك النظرات. تقدمت مني ببطء، ورحت أستعد لتلقي ضرباتها على وجهي أو على كتفي. تملكني الخوف، لكنها بدلاً من أن ترفع يدها، فتحت فمها وتساءلت «وسيتزوج برباره؟».

أراحني السؤال: نعم.. من منا لا يعرف أنهما متحابان؟

ـ ولكن أين برباره الآن؟ وكيف سيجدها، لقد أجبرتها زوجة عمها على الرحيل..

Twitter: @alqareah

حاولت أن أتكلم لكنها قاطعتني «لا تقل أنك تعرف أين هي أيضا».

ـ ولماذا لا أقول ذلك؟

وتساءل الجميع بصوت واحد «أتعرف؟».

ـ سؤال غريب.. وما عساي أن أقول؟ وأية قصة سأبتدع؟ حاولت تغيير مجرى الحديث والتحدث عن الأجر الذي يتقاضاه ببغلار لقاء طحن أكياس الذرة أو القمح، في محاولة للتمكن من صياغة قصة مقنعة نوعاً ما عن مكان وجود بربارة، لكن الجميع، كان يلاحقني بالسؤال وأين هي الآن؟ وماذا تعمل؟ وأجمع الكل على أن زوجة عمها هي السبب في مآسيها ومعاناتها، وفي رحيلها عن الضيعة. حتى أن بيغلار قال: «إن بربارة لم ترحل، بل هُجّرت».

لعب الفأر في عب بيغلار.. أيعقل أن يكون جاهلاً لمثل هذه الأمور، وهو الذي يعرف أسرار الضيعة والجوار؟ أحس أنه مهان... فوضع يده على كتفي بحنان وكأنه يستحلفني «وأين هي يا صديقي العزيز؟».

نظرت إليه بخبث «لقد أوصتني ألا أقول».

ـ لكني صديقك أليس كذلك يا سوسويا؟ وهل يخفي الصديق شيئاً عن صديقه؟

ـ لكنك عدوي، فأنت هتلر الذي دمر المدن وتسبب في مقتل الملايين من أبناء وطني عدا عن الأوروبيين.

ـ هذه لعبة سياسية كنا نلعبها، لنعد إلى حياتنا العادية.

Twitter: @alqareah

ـ حسناً، ما دمنا أصدقاء كما تدعي،

قاطعني بحدة «كما أدعي؟ ويحك يا فتى...».

ـ وهل الصديق يتقاضى أجراً من صديقه لقاء طحن كيس ذرة؟

أحس بيغلار ببعض الخجل، ولكن كما تعرف، هذه ليست طاحونتي، أنا مجرد موظف فهي ملك للدولة. أم أنك تريد طردي من الوظيفة؟

قالت إحدى النساء: معه حق.. إنه مجرد موظف يتقاضى أجره، ومن ثم كيف لا يأخذ منك أجراً بينما يأخذ منا.. ومني أنا خاصة؟

ضحكت أكفرينا؟ ولماذا هذه الخاصة؟ أم أن بينكما شيئاً لا نعرفه..انتبهي لقد جاوز بيغلار الستين وأنتِ ما تزالين في الأربعين..

ـ أوليس بيغلار متزوج من ابنة عمي؟

ـ صاح بيغلار دعونا الآن من هذه التفاهات والتفت إليّ «سوسويا.. أنا متأكد أنك لا تعرف شيئاً عن برباره وإلا كنت أخبرتني».

وانتفضت من مكاني. حدقت به بغضب، «ماذا؟ ومتى كنت كاذباً؟». نظرت إلى النسوة «هل سمعتن يوماً أن سوسويا كذب على أحد؟» وجاء جوابهن بالنفي.

ـ إسمع يا صديقي بيغلار سأخبركم بما أعرف ولكن لقاء أمرين..

ـ وما هما؟

ـ الأول أن تعطيني سيجارة من التبغ الخاص بك. ومد بيغلار يده

Twitter: @alqareah

إلى علبة التبغ، تناول بعضاً منه وأخذ يلف سيجارة «هذه لك».. وما الأمر الثاني؟

ـ ألا تخبروا أحداً. قلت هذا وأنا على يقين أن النسوة لن ينتظرن بزوغ الفجر لينشرن ما أقول، وكنت على يقين أنهن مستعدات لترك أكياس الذرة هنا في الطاحونة، حتى ولو سلب بيغلار قسماً كبيراً منها، والعودة إلى الضيعة وقرع الأبواب لإخبار الآخرين.

أقسم الجميع ألا يخبروا أحداً. «ولكن أين هي برباره؟».

تساءلت أنا... بيني وبين نفسي. فأنا لا أعرف شيئاً عنها أبداً.. ولكن.. حدقت فيهم «وماذا كانت تعمل برباره هنا؟».

أجابت أكفرينا: ممرضة في مستوصف الضيعة.

ـ والممرضة أين تعمل؟

ـ في مستوصف أو مستشفى. قالت أكفرينا وتابعت «ولكن في أي مستوصف أو مستشفى؟».

ـ إنها تعمل في مستشفى ميداني بالقرب من الجبهة ولا يسمح لها بتحديد المكان بدقة.. إنها أسرار عسكرية كما تعلمون...

ـ ها.. ها.. هكذا إذن يا أيها الفتى؟ قال بيغلار.

ـ لقد أوصوك الشباب بالصبايا يوم ذهبوا، فكنت خير من يقوم بهذه المهمة يا سوسويا... قالت إحداهن شكراً للرب أنك ما تزال دون سن الزواج، وإلا كنت أصبحت...

Twitter: @alqareah

وقاطعتها: أصبحت ماذا؟ إفهمي أن للفتيات كرامة فلا تسيئي الظن لا بهن ولا بي.

وتدخلت أكفرينا: عروسه حاضرة.

ـ وماذا تعنين؟ قال بيغلار.

ـ لا أعني شيئاً، ولكن هل ينكر أنه يحب خاتيا؟

ـ ما تزال صغيرة، لم تبلغ السادسة عشر بعد!!! قالت إحداهن.

«لكن زوجتي أنجبت وهي في مثل هذا السن». قال بيغلار.

ـ نعم أحب خاتيا.. قلت هذا بصوت الإنسان الواثق.. أحبها.. أحبها.

فجأة أخذ الكلب يعوي دون انقطاع، وأحسسنا أن هناك من يحاول فتح باب الطاحونة. نهض بيغلار وفتحه، فإذا داتيكو وعلى ظهره كيس ذرة، لم أكن التقيته منذ ذاك اليوم الحزين، يوم قتل بيجان.

ما إن دخل حتى شعر الجميع وكأن الطير حط على رؤوسهم وشعرت بجسدي يرتجف غضباً وخوفاً، ارتخت ركبتاي و لم أعد قادراً على التفوه بأية كلمة.

إقترب دايتكو وجلس إلى جانبي بعد أن أسند بندقيته إلى الحائط ونفض الثلج عن ثيابه.

ـ «لا تخف يا سوسويا، فلست بقاتل او مصاب بالطاعون».

لم أجب، أما بيغلار والنسوة فكانوا ما يزالون واقفين وعيونهم مصوبة نحو دايتكو الذي نظر إلى بيغلار قائلاً:

Twitter: @alqareah

ـ ما بك لا ترد التحية.. ألم تر إنساناً من قبل؟

ـ بلى رأيت إنساناً، ولكني لم أرَ نظيراً لك، فاغرب عن وجهي، واعلم أني لن أطحن لك هذه الذرة. حتى ولو اضطررت إلى تحطيم هذه المطحنة، أو حفر قبري بيدي.

بدا داتيكو حزيناً، لم يعد يعرف ما يقول. إنه يحس بالمهانة وأن لا أحد يرغب في رؤيته أو التحدث إليه، بل وجد أن الجميع يتمنى له أبشع ميتة، فهو عدا عن أنه قاتل، فهو إنسان جبان وخائن للوطن كما وصفته أكفرينا.

ـ أنا لا أنكر أني جبان، ولكن حبي لها كان أقوى من حبي للوطن، هربت من الجبهة وجئت لأراها، لكنها رفضت إرواء عطشي بشربة ماء.

ـ وهل تستحق شربة الماء يا جبان؟ قالت أكفرينا.

ـ إسمعي يا أكفرينا، لست أنا من قتل ابنك، ولا غيره من الذين ماتوا على خطوط النار. ولكن لو فعل إبنك مثلي لكان اليوم..

وقاطعته المرأة بغضب وحدة: نعم مات ابني ولا أعرف أين دفن، كل ما بقي منه ذاك القميص المصبوغ بدمه، وهذا أشرف لي بكثير من وجوده حياً كما أنت اليوم، هارب ليس من وجه العدالة وحسب، بل وحتى من كل معارفك والذين كانوا أصدقاءك، هارب حتى من ذاتك، نحن إن بكينا إبناءنا فنبكيهم حزناً ولكننا نعتز أن هناك من ينادينا يا أمهات الشهداء، ولكن.. انت أنت تبكي ندماً.

ـ أين صاحبك الروسي يا سوسويا؟ لماذا ليس معك؟

Twitter: @alqareah

ـ إخرس يا أيها النذل فعمتي أشرف منك ومن سلالتك.

ـ أعرف هذا، ولا تعتقد أني أقصد ذلك.. إلتفت داتيكو نحو بيغلار: إسمع يا بيغلار.. أنا لا أريد هذا الطحين، فأرجوك، أعطه لمن هم بحاجة إليه، وأنا أعرف أن هناك عائلات كثيرة بحاجة له..

انتصب داتيكو واقفاً، أجال نظره في الطاحونة وتفرس وجوه النسوة ووجه بيغلار وكذلك وجهي: «أنا ذاهب.. لا تخافوا.. ذاهب ولست أدري إلى أين».

ـ إن كان ما يزال عندك ذرة من الكرامة إذهب وسلم نفسم لأقرب مركز عسكري، فمن يدري قد تُخفف عقوبتك وقد تُعطى فرصة جديدة.. قالت أكفرينا.

استدار دايتكو نحو باب الطاحونة ومضى خارجاً لكنه لم يسلك الطريق الذي وطأته الأقدام على الثلج. بقيت أتابعه بنظري حتى ابتلعه الظلام فتنفست الصعداء وقلت: لقد اختفى زائر الفجر.

Twitter: @alqareah

13

انقشعت السحب الكثيفة، بضعة غيوم بيضاء تتناثر في السماء، وقرص الشمس يبدو كقطعة نقود ذهبية لماعة. إنها شمس نيسان، الثلوج ما تزال تغطي قمم الجبال، فالسهول تبدو متعددة الألوان من أصفر إلى أحمر مع طغيان اللون الأخضر.

مياه الينابيع تنساب مندفعة نحو الوادي، نحو مجرى نهر سوبسا، قطعان الماعز تتسلق الممرات الوعرة، بحثاً عن غصن بدأ يتبرعم، والعصافير في عرس دائم. أما الضيعة فما عادت تميز بين ربيع وخريف. تمر الأيام رتيبة مملة، كلها ترقب خبر استشهاد أحد أو إستعادة مدينة أو إنتصار في معركة. لقد طالت الحرب، وتآلفنا معها ومع أخبارها، ما يكاد ذَكرٌ يبلغ الثامنة عشرة حتى يُستدعى للخدمة العسكرية: إلايّ أنا.. ما أزال أسرح وأمرح في هذه الضيعة مع قلة من الذين هم دون السن القانوني.

هذا الصباح، أقلت الحافلة خاتيا ووالدها إلى المدينة، إلى حيث الطبيب الذي يعالجها، هكذا وجدت نفسي وحيداً، لم أرغب مشاركة المتجمعين أمام دكان العم غيراسيم أحاديثهم

Twitter: @alqareah

ومناقشاتهم وتحليلاتهم فقصدت قبر بيجان.

«أسعدت صباحاً يا بيجان، لا تقل إني نسيتك يوماً. منعني الثلج عن زيارتك وكذلك كثرة الأشغال. لقد أصبحت رجلاً بكل معنى الكلمة، أو قل الحرب جعلتني هكذا، وجعلتني أفكر بالمستقبل، فقررت الإجتهاد في المدرسة دون نسيان ما عليّ من واجبات تجاه عمتي وأبناء ضيعتي.

فيما مضى كنت يا بيجان تقوم بالكثير من الأعمال التي أقوم اليوم أنا بها. لكنك رحلت، وكذلك صاحبنا الروسي. نعم يا بيجان رحل أناتولي، لقد تعافى تماماً وقرر العودة إلى الجبهة. غريبة هي الحياة، داتيكو يفر من الجبهة وأناتولي يشتاق إليها. لقد نهض ذات صباح ورحل و لم يتعب نفسه بإرسال بضعة أسطر لنا.. من يدري، قد يكون نسي عمتي ونساني، ولكن لا حق له في نسيان كيف احتضنه أبناء الضيعة، وكيف حرموا أطفالهم من الحليب إكراماً لعينيه.

لقد تمكن من إقناع العم لوقا، أن ولده ما يزال حياً، وجعله ينتزع راية الحداد التي كانت مرفوعة عند باب المنزل، وكثيرون حذوا حذو لوقا، واعتبروا أبناءهم أحياء، طالما أن لا جثث سلمت لهم.

داتيكو ما يزال هارباً، هذا إن لم تكن إفترسته الذئاب الكاسرة، خاتيا ما تزال تصر على أنها ترى الشمس.

نحن الآن في بداية نيسان، قمم الجبال ما تزال مغطاة بالثلج، لكن دفء الربيع بدأ يتسرب إلى بيوتنا، والأغصان أورقت،

Twitter: @alqareah

وتفتحت براعم العشب وها هي الأزهار البرية تتراقص معاً وتتمايل فتختلط الألوان.

عفواً يا بيجان، أعرف أن همك الوحيد هو معرفة ما يجري على خطوط النار. فاطمئن، لم نكتفي بوقف الزحف الألماني داخل حدودنا، بل بدأنا باستعادة أراضينا التي احتلها الفاشيون، وقريباً جداً سنطاردهم داخل حدود ألمانيا، هكذا يقول العائدون من الجبهة.

ـ «مرحباً سوسويا». والتفت مذعوراً نحو الصوت، فإذا بها ناتاليا التي تزوجت منذ عام ليس أكثر، لكن القدر شاء أن يجعلها أرملة وهي لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها بعد، فعادت لتعيش مع والدتها. ما أزال أتذكر زفافها، وكأنه كان بالأمس، كان عرساً احتفالياً، وما زلت أتذكر كمَ بكت والدتها وهي تودعها، حين اعتلت ناتاليا الفرس في طريقها إلى الكنيسة، بدت وكأنها امبراطورة تستعرض حرسها الخاص.

مسكينة ناتاليا، لم تهنأ بزواجها، فقد استدعي زوجها إلى الخدمة العسكرية، وبعد شهر من استدعائه، جاء خبر استشهاده، فعادت ناتاليا لتسكن مع والدتها.

وها هي الآن أمامي، بقامتها الممشوقة، وشعرها الكستنائي الذي يغطيه منديل أسود، ها هي أمامي تبتسم فتكشف عن أسنان بيض ينعكس عليها ضوء الشمس.

ـ مرحباً ناتاليا.. أجبتها وصوتي يتقطع تعبيراً عما

Twitter: @alqareah

أصابني من ذعر، ما كنت أحسب أن أحداً يراني أو يقف إلى جانبي.

ـ مع من كنت تتحدث...

ـ مع نفسي.

ـ وماذا قالت لك نفسك؟

ـ لا أعرف..

تقدمت ناتاليا مني ومدت يدها وأخذت تداعب شعري وتبتسم أكثر فأكثر.

ـ لقد أصبحت رجلاً يا سوسويا.. قالت هذا وهي تمرر يدها على وجنتي.

أحسست بالنار تلتهب داخل جسدي. إنها المرة الأولى التي أنا فيها بمثل هذا الموقف، والحقيقة أني لم أكن أدري ماذا أفعل، أو ماذا تريد ناتاليا مني.

ـ بالفعل أصبحت رجلاً يا سوسويا، ونبت شعر شاربيك ومررت رؤوس أناملها على شفتي العليا، فيما هي تنظر إليّ وشفتاها تنفتحان حيناً، وتنطبقان حيناً آخر.

لم أتمكن من الإجابة. كل ما فعلته هو الوقوف محاولاً الإبتعاد عنها، مخافة أن تسمع دقات قلبي.

رمقتني بعينيها الواسعتين وابتسمت. أيقنت أنها سمعت دقات قلبي، وأيقنت أنها أدركت ضعفي أمام إغراءاتها،

Twitter: @alqareah

ـ إلى أين أنت ذاهب الآن يا سوسويا؟

ـ إلى البيت، فالشمس تميل إلى الغروب.

ـ ما يزال الوقت مبكراً لغروب الشمس. قالت هذا فيما أنا أنحني لأتناول الفأس الذي كان معي عن الأرض، وما إن رفعت جسدي مجدداً حتى رأيت ناتاليا ما تزال منتصبة القامة أمامي، وما تزال الإبتسامة على شفتيها إنما المنديل الأسود تراجع إلى الوراء وارتمى على الكتفين بدلاً من أن يغطي ذاك الشعر الكستنائي الناعم، فأحببت أن أظهر جرأتي فسألتها: وأنتِ... لماذا أنتِ هنا؟

ـ لجمع أوراق الشجر وبعض الأعشاب، فهل تساعدني يا سوسويا؟

سؤال مربك ومحيّر. فعلا. الشمس تميل إلى الغروب وأخاف أن يداهمني الظلام وأنا في طريق العودة إلى الضيعة.

ـ لا مانع عندي، إنما علينا أن نسرع في العمل.

ابتسمت ناتاليا، وعادت يدها لتداعب شعري من جديد محاولة جذب رأسي إليها، إنما برفق حتى لا تشعرني بذلك. تناولت السلة من يدها، وعدونا نركض بين الأشجار ووسط الأجمات، نجمع الأوراق والأعشاب حيناً، ونضحك حيناً آخر، ونتجاذب أحاديث متنوعة، عن الضيعة وعن الحب وعن كل شيء، روت ناتاليا الكثير من القصص والحكايات عن الصبايا والشباب ومغامراتهم العاطفية، وعن المواعيد التي كانت تعطى عند ضفة نهر سوبسا وخاصة على صخرة حورية الماء، أو تحت أشجار السنديان بالقرب منها حيث

Twitter: @alqareah

بامكان العاشقين أن يلتقيا دون أن يراهما أحد فيتبادلان القبل والعناق الحاد.

أيقنت فعلاً أني ما أزال فتى أغر، لا أعرف شيئاً عن حياة الشباب ولا عن الحب والعشق، ما فكرت يوماً إلا بخاتيا، وكيف سترى الشمس، حتى يتمكن الطبيب ـ إن كان صادقاً في قوله ـ من إعادة النظر إلى عينيها.

مالت الشمس نحو المغيب، فبدت كقرص ذهبي أشبه ما يكون بقرص خبز الذرة الطازج المحمر، كما كان يقول بيجان حين يتملكه الجوع، أما أنا، فأراه الآن كوجه خاتيا حيناً وكوجه ناتاليا حيناً آخر. وتساءلت بيني وبين نفسي عن سبب لهذا، فما وجدت جواباً شافياً.

كانت ناتاليا تجمع الأوراق في السلة على مهل متعمد، فيما أنا أستعجلها وفجأة تساءلت ناتاليا.

ـ ماذا كنت تقول لبيجان؟

ـ كنت أخبره عما جرى بعد موته.

ـ وهل أخبرته أن زوجي مات وأني عدت للعيش مع والدتي.

ـ لا لم أفعل ذلك.

ـ كان بيجان يحبك كثيراً يا سوسويا.

ـ أعرف ذلك.

ـ ولكنك لا تعرف أن هناك غير بيجان من يحبك كثيراً أيضاً.

Twitter: @alqareah

ـ ... لا أعتقد ذلك.

ـ ثق أن كثيرات تحبك يا سوسويا.

ـ وأنتِ؟ لست أدري لماذا سألتها هذا السؤال الذي تسبب باحمرار وجهها. أحنت رأسها الأرض وقالت؟

ـ لماذا لا تزورنا يا سوسويا، فأنت تزور الجميع إلانا.

ـ سأفعل ذلك.

ـ ولكن متى؟ قالت متلهفة أن تلقى جواباً.

ـ يوم تريدين..

ـ يمكنك فعل ذلك، ساعة تشاء، إن في النهار أو في الليل، فأنت مرحب بك ولكن..

ـ ولكن ماذا؟

ـ لماذا تتبعك تلك الفتاة ليل نهار؟

ـ أتقصدين خاتيا؟

ـ نعم.

ـ ليست هي التي تتبعني، بل أنا من يفعل ذلك.. إنها ترتاح لرفقتي.

ـ وأنت؟...

ـ وأنا كذلك..

ـ وهل تحبها؟

Twitter: @alqareah

ـ نعم وهي كذلك على ما أعتقد.

ـ وكيف تحبك يا سوسويا؟... أعني..

ـ كما كل فتى وصبية.

ـ وهل تتبادلان العناق والقبل تعبيراً عن الحب؟

وقع سؤالها عليّ وقوع الصاعقة. فحتى اليوم لم أقبل لا خاتيا ولا غيرها، ولا أعرف ما هو الإحساس الذي تولده القبلة، كل ما أعرفه أني حين أغمرها أشعر بالدم يتدفق إلى قلبي.

وكررت ناتاليا السؤال ذاته، وكأنها مصرة على معرفة جوابي.

ـ حتى الآن لم نفعل ذلك... كل ما أفعله هو أن أضع يدي على كتفها أو أداعب شعرها، وحتى لا أكون كاذباً، قبلتها مرة واحدة جانب فمها.

ـ وهل قبلت غيرها يا سوسويا، أم أنك ما تزال لم تذق طعم القبلة ولا لذة العناق؟

ـ كما قلتِ... ولكن أنت؟ أما من أحد يحبك؟

ـ لا أعرف.. بدا الحزن على ملامحها.. وأردفت منذ مات زوجي لم يعبرّ لي أحد عن حبه.

ـ ولكن لا شك أن هناك من يحبك ويتمنى أن تكوني حبيبته.

ـ المهم.. أنت.. هل تحبني؟

ـ لا أعرف.

Twitter: @alqareah

ـ يبدو أنك لا تعرف شيئاً عن الحب والمرأة، كل ما تعرفه أنك ترتاح لرفقة خاتيا، أما الحب الحقيقي فلا تعرف عنه شيئاً.

مدت يدها وأمسكت يدي، أحسست أن شهب نارٍ انتقل من يدها ليدي وكل جسدي: «أتعرف معنىً أن تكون إمرأة في مثل سني وحيدة؟ أنا أحبك يا سوسويا.. وسأعلمك كيف يكون الحب».

حاولت سحب يدي من يدها، لكنها جذبتني إليها وطوقتني بذراعيها فالتصق جسدانا وصرنا وجهاً لوجه، رأيت شفتيها ترتجفان وكذلك كانت شفتاي. قدمت فمها من أذني وأخذت تهمس بكلمات أشعلت النار في داخلي «سوسويا، أتشعر بالنار في جسدك؟ كما أشعر أنا؟».

انحنت وقبلت عنقي، فارتعش جسدي كارتعاشة من يحتضر.. إنه شعور لا يوصف، فشددتها إليّ ورحت أحرك شفتي على عنقها فضحكت «فعلاً ما تزال بريئاً للغاية.. قبّل عنقي كما أفعل أنا، دع أنفاسك تحرقني يا سوسويا».

خجلت من نفسي، فأبعدتها عني، لكنها عادت وجذبتني إليها وراحت تقبل شفتي. لست أدري كيف بادلتها قبلات الشفاه بذات أسلوبها حتى أنها راحت تتأوه وتقول «حرك يديك على جسدي يا سوسويا» ثانية أبعدتها عني و لم أسمح لها بضمي.

ـ لا تخجل يا سوسويا، لا شك إنها القبلة الأولى؟

ـ دعينا نعود إلى الضيعة قبل حلول الظلام يا ناتاليا.

Twitter: @alqareah

ـ حسناً.

حملت سلتها على رأسها وشبكت يدها بيدي وسرنا معاً، لا هي تكلمت ولا أنا فعلت حتى بلغنا مدخل الضيعة.

ـ أكنت مسروراً يا سوسويا؟

سؤال لم يكن متوقعاً، والجواب عليه صعب، لأني أنا فعلاً لم أكن أدري إن كان ذلك سرني أم لا.. غير أني لا أنكر تمنيت لو تكرر ذلك.

وكررت ناتاليا السؤال، وبدلاً من أن أعطيها جواباً سألتها «وأنتِ؟».

ـ كنت أتمنى لو يطول ذلك، ليس من أجلي، بل من أجل خاتيا.

ـ وما دخل خاتيا؟.

ـ حتى تتعلم كيف تقبلها وكيف تضمها إليك وتجعل جسدها يلتهب بنار الحب فتتأكد من حبك.. اسمع يا سوسويا، ما من إمرأة إلا وتحب أن تفعل ما فعلت أنا اليوم خاصة مع من تحب، فالعناق والقبل للحب هما كما الماء بالنسبة للورود والزهور. ويبدو أنك بحاجة لمن تثير فيك الشهوة...

ـ ولماذا فعلت هذا معي؟

ـ لأني أحبك، ولأني أعرف أنك لن تخبر أحداً أليس كذلك؟

ـ لن أخبر أحداً، تأكدي من ذلك.

ـ إن زرتني ليلاً، سأزرع الدفء في جسدك، وسأعلمك

Twitter: @alqareah

كيف يكون الحب. هذا إن زرتني...

ـ ومن قال إني لن أفعل؟ ولكن...؟

ـ ولكن ماذا؟

ـ ماذا عن والدتكِ؟

ـ دعك من هذا، ننتظر حتى تنام.

قدمت شفتي وقبلت شفتيها بسرعة كمن يختلس شيئا، فابتسمت دون أن تتفوه بأية كلمة وافترقنا. هي ذهبت إلى بيتها، وأنا مشيت إلى بيتي متعثر الخطى، شارد الذهن.

ما إن دخلت المنزل حتى استقبلتني عمتي بلهفة غريبة: أين كنت يا ولدي؟ سألت كثيرين عنك.. أين كنت حتى هذا الوقت؟ نظرت إلي: ما بك لست على ما يرام.

ـ لا شيء يا عمتي ولكني ذهبت لزيارة قبر بيجان ولست أدري كيف استرسلت في الحديث، وحين أغربت الشمس أحسست بالخوف، فرحت أركض عائداً، لكني التقيت بناتاليا.

ـ وماذا كانت تفعل ناتاليا؟

ـ كانت تجمع أوراق الشجر والأعشاب، مسكينة كم بكت؟

ـ مسكينة ناتاليا، ما تزال في مقتبل العمر، وكانت تحب زوجها..

ـ ما زلت أذكر زفافها، وكيف اعتلت الفرس وسط الزغاريد والأهازيج.

Twitter: @alqareah

ـ لكنها الحرب يا سوسويا؟

استلقيت على سريري ورحت أحدق بسقف الغرفة وأستعيد ذكريات ما حصل وأنا حائر بين السرور والنوم. تخيلتها عارية ترقد إلى جانبي، وأردت الاسترسال في هذا الخيال لولا صوت عمتي.

ـ لا تفعل ذلك ثانية يا سوسويا.

ـ لن أفعل هذا.. نامي يا عمتي، ها أنا معك، ولن أخالف لك أمراً، لقد أصبحت راشداً يا عمتي وأعرف لماذا لم تتزوجي.. أعرف أنكِ رفضتِ الزواج بسببي، الكل يقول ذلك، فوالله لا أعرف كيف أشكرك يا عمتي..

ـ نم يا صغيري.

ـ تصبحين على خير ياعمتي.. وقلت لنفسي «نم يا سوسويا نم، ولكن.. ما أعسر النوم وناتاليا لا تفارق خيالي؟».

Twitter: @alqareah

14

. برباره، تجلس حاضنة ركبتيها بيديها عند جذع شجرة لبلاب أمام مستشفى ميداني، عيناها زائغتان في البعيد، شاردة الذهن، تغتالها الذكريات الحلوة منها والمرة.

أحلى ذكرياتها، هي تلك اللقاءات مع الكسي ابن لوقا، حيث كانا يتبادلان كلمات الحب والغزل، والعناق والقبل، ولولا الحرب، لكانا اليوم متزوجين، ومن يدري، لربما رزقا بطفل سمياه لوقا تيمناً باسم جده.

ما تزال برباره، تتذكر أزقة الضيعة وزواريبها، تتذكر طاحونة بيغلار، ودكانة عمها غيراسيم الذي لم يتمكن من وضع حد لزوجته ومنعها من تعذيبها نفسياً صبحاً ومساءً، حتى صارت تتمنى لو أنها ماتت قبل موت والديها.

بالوقت ذاته، في صدرها حنين وشوق، للقاء صديقات الطفولة وزميلات الدراسة. إنها مشتاقة للوقوف في ساحة الضيعة، تضع رأسها على كتف عمها ولتزعق زوجته قدر ما تستطيع وأكثر.

منذ ثلاث سنوات، والكل بانتظار الحافلات التي ستقلهم إلى

Twitter: @alqareah

الثكنات العسكرية، كان آخر لقاء لها مع الكسي، هو ذهب للقتال، وهي بقيت مستسلمة للدموع والعذاب. كان أملها الأوحد في خلاصها من جور زوجة عمها ولذاعة لسانها، كانت تكنس وتساعد في الزرع الحصاد وعزق الذرة، وكثيراً ما انحنى ظهرها تحت الأكياس المملوءة بالذرة وهي في طريقها إلى طاحونة بيغلار ورغم هذا لم تسمع منها كلمة شكر واحدة.

كان ألكسي أملها، لكن الأمل ذهب، ولا أحد يعرف أحي ما يزال أم ميت هو. أسئلة كثيرة كانت تدور في رأسها.

«لنفترض أنه عاد للضيعة، ولنفترض أنها ما يزال يحبني ولكن كيف سيجدني؟ وماذا لو عدت إلى الضيعة و لم أجده، أو وجدته متزوجاً من غيري؟ من ناتاليا مثلاً فهي حتى قبل زواجها كانت تحاول إغواءه، فكيف اليوم وقد مات زوجها بعد شهر على الزواج؟ لا... لا أعتقد أنه يفعل ذلك. ألكسي يحبني بجنون وأنا أحبه بجنون».

ولكن، كيف أكون أحبه بجنون، والجريح رقم 382 يستولي على كل تفكيري واهتماماتي؟ مسكين هذا الجريح كم مضى عليه مضمد الوجه، غير قادر على الحركة أو الكلام. ترى من يكون؟ من أي مدينة هو؟ لا شك كان قبل الحرب يعيش قصة حب مع صبية، ما تزال تنتظر عودته كما أمه وأبوه. ومن يدري قد تكون تزوجت غيره؟ وهل في المدن أو القرى شباب بسن الزواج؟ ليس فيها إلا صغار السن والنساء والعجائز والباقون منتشرون على خطوط الجبهات، من أقصى الشمال في أوروبا حتى أقصى جنوب الاتحاد

Twitter: @alqareah

السوفياتي في آسيا، حتى الأرض اشتاقت للسواعد السمر. والنساء لمن يسمعهن كلمة إطراء. لا شك أن سوسويا هو محط أنظار جميع الصبايا، لكنه يحب خاتيا ولا أعتقد أنه على استعداد لمغازلة غيرها، إلا إذا تفننت إحداهن في إغوائه».

فيما برباره في شرودها الذهني هذا، جاءت زميلة وجلست إلى جانبها.

ـ ما بكِ يا برباره...؟

ـ أفكر بما آلت إليه حالنا يا أولغا.. أفكر بنفسي وبهؤلاء المساكين الذين نداويهم.

ـ وخاصة الجريح رقم 382 أليس كذلك؟

ـ دعكِ من الخبث الآن، إنه مسكين وهناك كثيرون غيره في مثل وضعه..

أترين يا أولغا إن هناك بعضاً من مرضانا، لا نعرف أسماءهم ولا من أين هم؟

ـ فعلاً..

ـ مساكين هؤلاء، لقد تحولوا إلى مجرد أرقام حتى عند الأطباء والممرضات والطباخين.

ـ والرقم 382 واحد منهم.

ـ إنه واحد من حوالي ثلاثين جريحاً لا نعرف أسماءهم ولا وجوههم حتى!!!

Twitter: @alqareah

ـ ولكن لماذا اهتمامك الزائد بالرقم 382 حتى صرنا نطلق عليه جريح بربارة؟ أتلاحظين أن أيا من الممرضات لا تجرؤ على الاقتراب من سريره إلا بعد طلب الإذن منكِ.

ـ أعرف هذا... صدقيني أولغا، كثيراً ما أفكر بنزع الضمادات عن وجهه لربما؟

ـ لربما ماذا؟

ـ لربما يكون واحداً من ضيعتي أو ...

وقاطعتها أولغا: أو ماذا يا بربارة؟

ـ لا عليكِ، لا أحب الاسترسال بالأوهام.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا شيء..

خيم بعض من الصمت عليهما، قطعته بربارة بتساؤلها «أيعقل أن يكون هو؟» قالت هذا ومسحت دمعاً ينساب على وجنتيها «لا.. لا.. ليس هو».

ـ ماذا تقولين يا بربارة؟ أو بالأحرى ما هذا الذي تهذين به، أمحرورة أنتِ؟

ـ وماذا قلت؟

ـ نعم.. !!! قالت أولغا متعجبة. ومدت يدها ووضعتها على جبهة بربارة «لا لست محمومة... إذاً من هو هذا الذي تتحدثين عنه الذي قد يكون هو؟».

Twitter: @alqareah

ـ عمن تتكلمين؟

ـ إسمعي بربارة، ما أزال أتمتع بحاسة سمع جيدة جدا، فلا تحاولي خداعي. أنا صديقتك الوحيدة هنا، والأهم كلانا من جورجيا، سمعتك تقولين «أيعقل أن يكون هو؟ فمن هو هذا؟».

ـ أولغا هناك إحساس غريب يشدني نحو هذا الجريح، لماذا؟ لست أدري.. حين أقترب منه، أحس بخفقان قلبي أتمنى لو بمقدوري ضمه إلى صدري.

ـ وماذا يعني هذا؟ ومن ثم من هو هذا الذي تعتقدين أنه هو؟.. بربك لا تقولي..

وقاطعتها بربارة: نعم كما تفكرين..

ـ ألكسي؟... أيعقل هذا؟

ـ أسمعه يتمتم أحياناً بكلمات مبهمة وصدقيني أسمعه يردد إسمي وإن بشكل غير واضح، وكما تعلمين فهو غير قادر فتح فمه.

ـ هذا لم يعد حباً، بل جنوناً، تسمعينه يردد إسمك؟ كيف؟

ـ بر... بر..

ـ ولماذا تعتقدين أنه يقصد بربارة وليس بيرلينا مثلاً؟

ـ لأنه يكمل أحياناً: بر.. بر.. با.

ـ إذا كان هذا ما تسمعين، فلا شك أنك تسمعين ما يحلو لكِ أن تسمعي، أو بالأحرى ما يؤكد أوهامك.

Twitter: @alqareah

ـ هذا الذي يخيفني يا أولغا أن أكون مستسلمة لأوهامي.

ـ لا عليكِ بعد غد سيضطر الطبيب لنزع الضمادات عن وجهه.

ـ ومن قال لكِ ذلك، ولماذا؟

ـ سمعته، يحدث رئيسة القسم.

ـ لماذا؟

ـ هذا عمل الطبيب، لا شك سيعيد وضع ضمادات جديدة، وقد يكون للتأكد من فعالية العلاج..

ـ وماذا يعني؟

ـ يعني أنكِ سترين وجهه وتتأكدين.. هذا إن كانت ملامحه ما تزال هي هي..

حدقت برباره بأولغا تحديق النسر بفريسته: أحقاً ما تقولين؟ متى قلتِ؟

ـ بعد غد.

ـ ولماذا ليس اليوم أو غداً..

ـ كم سنة انتظرت؟

ـ ثلاث سنوات مرت على آخر لقاء.

ـ إذن انتظري ثمانية وأربعين ساعة.

ثمانية وأربعون ساعة أم ثمانية وأربعون سنة؟ وراح الوقت يمر برتابة مملة. عند المساء نظرت برباره إلى السماء وراحت تحصي

Twitter: @alqareah

النجوم في محاولة للقضاء على الخوف الذي تملكها. فهي خائفة أن يكون هو هو، ومن ردة فعلها، وبالوقت ذاته خائفة من صدمة نفسية إن لم يكون هو هو.

ومر الليلان ثقيلان، وبزغت شمس «بعد الغد» لكن برباره كانت قد سبقتها في النهوض.

ـ أولغا.. أين الطبيب؟

ـ إنه يقوم بجولته الإعتيادية.

ـ وكم تستغرق هذه الجولة؟

ـ ما بكِ، تتساءلين وكأنكِ لست ممرضة، أو كأنكِ لم ترافقيه يوماً في جولته هذه !!!

ـ معك حق يا أولغا.. ولكن؟

ـ ولكن ماذا؟...

ـ هل سيسمح لي أن أكون إلى جانبه؟

ـ وهل يجرؤ أحد أن يقترب من السرير 382 من دون إذن منكِ؟ إسمعي ما عليكِ إلا الإنتظار قرب السرير.

ـ شرط أن تكوني معي.

ـ ولماذا؟

ـ حتى تساعدينني إذا ما أغمي عليّ، وفي الحالتين سيغمى عليّ.

ـ لك ما تريدين إن لم استدعى للإعتناء بجريح آخر.

Twitter: @alqareah

قرب السرير 382 وقفت برباره وهي تمسك بيد أولغا وتشد عليها، لم تفعل ذلك إلا بعد أن أحضرت كل مستلزمات نزع الضمادات. حتى لا يضطر الطبيب في التأخر بنزعها.

كان الجريح 382 يتحرك معبراً عن تحسن حاله، يحرك يديه، ويتفوه بكلمات مبهمة غير واضحة، وكانت تبدو على شفتيه ملامح ابتسامة حين ينظر إلى برباره حتى أن أولغا لاحظت ذلك، ونظرت إلى برباره، إنه يبتسم لكِ تعبيراً عن شكره.

ابتسمت برباره. لقد أدخلت كلمات أولغا الارتياح إلى نفسها، لكن أولغا كانت تتساءل سراً «أيعقل أن يكون هو؟ ويبتسم تعبيراً عن فرحه لرؤيتها؟» وأصغت إلى ما يقول وهو يمد يده ليلامس يد برباره «بر.. بر.. ».

لم تتمكن من الإصغاء أكثر. لقد جاء الطبيب وتوجه بالكلام إليه.

ـ اليوم سننزع هذه الضمادات عن وجهك وهذه هي المرة الأولى التي سترى برباره وجهك فيها، لأنه لم يسبق لها أن ساعدتني في هذه المهمة من قبل. على فكرة، عليك أن تكون ممتناً لها مدى الحياة، لما أبدت من اهتمام بك بشكل خاص دون الآخرين.

ابتسم الطبيب ونظر إلى برباره «أتمنى أن يكون وسيماً ليروق لك».

تضرج الدم في وجنتي برباره و لم تتفوه بأية كلمة. وشرع الطبيب بنزع الضمادات على مهل، قطعة بعد أخرى، حتى انتهى

Twitter: @alqareah

منها، فطلب من برباره مناولته بعض المطهرات لغسل الوجه، فلم تسمع.. بل أخذت تحدق بوجهه وتشد على يد أولغا، بشكل كاد الدم أن يتجمد بها، والدموع تنهمر على خديها وتمتم: إن.. إن... ه.... ه..و

وصاحت أولغا: ماذا؟ أحقاً إنه ألكسي؟

لم تتمكن برباره من الإجابة، وصاح الطبيب «برباره ما بكِ؟ أعتنيتِ به زمناً طويلاً، فما بكِ الآن؟».

نظر المريض إلينا معاً: برباره.. أحقاً أنتِ برباره؟

وانهارت برباره أرضاً، كانت تخشى الإغماء. وها هي مغمى عليها فتولت أولغا الإجابة عنها. نعم هي برباره تشيفارندزه وأنت ألكسي أليس كذلك؟

أحنى رأسه. نعم أنا هو، وكاد يصاب بنوبة عصبية لو لم يسرع الطبيب بحقنه بالمهدىء وهو يتساءل عن تبرير لما جرى ويجري، فأخبرته أولغا الحكاية، حكاية الحب التي تجمعهما وكيف افترقا وها هما يلتقيان بعد ثلاث سنوات.

صُعق الطبيب.. ووقف كالصنم وكأنه غير مصدق لما يسمع. لكنه مجبر على ذلك لأنه رأى بأم عينه وسمع بأذنه.

أسعفت برباره واستعادت وعيها، وأجهشت بالبكاء كما طفل يبكي لعبته التي انكسرت.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

15

كانت عمتي تعجن آخر ما تبقى من طحين، والدمع يبلل خديها، لم أسألها عن سبب ذلك، لأني مدرك أن لا فطائر غداً، وموسم الحصاد ما يزال بعيداً.

دخلت إلى غرفتي، وفتحت الصندوق الخشبي القديم وأخرجت منه معطفاً جلدياً كان لوالدي، وكذلك حذاءه وقررت بيعهما، إلا أن عمتي رفضت ذلك بحدة متناهية مدعية أنه من العار على بيع ذكرى أبي، لكنني أجبتها أن الذكرى لا تطعم خبزاً ولا تسد جوعاً وما ينفعني معطف إذا قضيت جوعاً.

عبثاً حاولت إقناعي ألا أفعل، مستعملة شتى الحجج، لكنني أصريت على موقفي، فتوجهت إلى بيت خاتيا لاصطحابها معي والاستعانة بدابة والدها كوسيلة نقل تنقلنا إلى الضيعة المجاورة لبيع المعطف والحذاء لقاء بضعة أرطال من الذرة.

أعطاني والد خاتيا بندقية لبيعها أيضاً، وأوصاني بخاتيا وألا نمطي الحمار كلاناً معاً.

مضينا أنا وخاتيا، وسط الوهاد والأشجار قاصدين الضيعة

Twitter: @alqareah

المجاورة علنا نجد فيها من ما يزال لديه وفر من الذرة.

في ذاك الزمن كان الحمار ظاهرة نادرة. مثله مثل سائح أجنبي أثناء الحرب، فكان الذين يلتقون بنا، ينظرون إلينا، وكثيراً ما كانت تلاحقنا قهقهات الأطفال والكبار معاً. وما عساي أفعل سوى الشعور بالخجل والصراخ لطردهم، فيما الحمار يسير غير مكترث لما يجري، يهز أذنيه حيناً وذنبه حيناً آخر، وخاتيا التي تعتليه تتساءل: أما رأى هؤلاء الناس حماراً من قبل يا سوسويا؟

ـ اصمتي وإلا أرجعتك إلى البيت ومضيت وحدي. ونمضي في طريقنا عابرين ضيعة يبدو الجوع بادياًعلى وجوه كل الذين التقيناهم، ولذلك رفضت اقتراح خاتيا أن نتوقف فيها، بل تابعنا طريقنا نحو نابيغلا التي وصلناها مساءً فتوقفنا عند أول بيت، فاستقبلنا رجل متوسط العمر مجدر الوجه وصبي في مثل سني إنما له أنف ضخم يشبه أنف كلاب الصيد.

سألانا من نكون وماذا نريد، فأجبتهما بوقار معرفاً عني وعن خاتيا وأن لدينا معطفاً جلدياً وحذاءً نريد استبدالهما بالذرة.

أخذ الرجل المتوسط العمر يعاين المعطف والحذاء باهتمام إلا أن الصبي تدخل متسائلاً:

هل هذا الحمار هو لك؟

أجبته نعم إنه لي.

فنظر إليّ نظرة غريبة وقال: أية قرابة تجمعك بهذه الفتاة؟

Twitter: @alqareah

ـ لا قرابة بيننا.

ـ وهل تستبدلها بالذرة هي أيضاً؟

وددت لو صفعته على أنفه لأجعله ملتصقاً بوجهه لكني تمالكت نفسي.

وتساءلت خاتيا: من هذا يا سوسويا؟

ـ إنه صاحب أنف كبير.

لاحظ الصبي أن خاتيا عمياء فتساءل عن ذلك وأجبته نعم. إنها عمياء لكنها ليست صماء أيها الأحمق فتساءل المتوسط السن، أجئت بائعاً أم شاتماً؟

ـ دع هذا الولد يصمت، لأنه يثرثر ويتصرف كما الخنازير الخارجة من زريبتها.

على كل كم تريد ثمناً لهذا المعطف؟

عشرون رطلاً من الذرة.

ـ أفقدت عقلك أيها الفتى؟ عشرون رطلاً؟ لن أعطيك أكثر من مكيال واحد.

تدخلت خاتيا، طالبة مني إنهاء هذه المماحكة والمضي في طريقنا إلى بيت آخر وقبل أن نبتعد عن البيت مالت خاتيا باتجاه الرجل المتوسط السن: هل تشتري الحمار يا عم؟

ـ وما حاجتي به كي أشتريه؟

Twitter: @alqareah

ـ «ليكون عندك حماران». قالت وهي تضحك منه بهزء وسخرية.

أراد ذو الأنف الكبير تناول الحجارة لرشقنا بها فصوبت البندقية نحوه، فاستدار وولى هارباً وكذلك فعل والده.

صعدت خاتيا على الحمار ومضينا بين بيوت هذه القرية غير المضيافة.

ـ أين أصبحنا يا سوسويا؟

ـ عند طرف الضيعة وها هو المساء يحل.

ـ إذن ما علينا إلا قضاء الليلة عند أحد يستضيفنا.

ـ معك حق يا خاتيا.

عند آخر بيت أوقفت الحمار وناديت صاحب البيت الذي أطل من الشرفة وهو يحمل المصباح بيده منادياً: من هناك؟

فأجبته معرفاً عني وعن خاتيا وسألته إذا كان بمقدورنا المبيت عندهم فرحب بنا، ونزل وفتح لنا الباب ودعانا للدخول، وساعدنا في خلع بردعة الحمار. ما إن دخلنا الدار حتى نادى زوجته لاستقبالنا «لدينا ضيفان يا امرأة تعالي والقي التحية عليهما».

فإذا بامرأة تجاوزت الخمسين من العمر، تدخل علينا وعلى رأسها منديل أسود، وعلى شفتيها إبتسامة باهتة. ورغم هذا رحبت بنا وأدخلتنا إلى غرفة فيها أريكتان. أجلست خاتيا على واحدة وجلست جانبها. أحببت أن أتصرف كما الرجال الكبار فقلت

Twitter: @alqareah

«عمّر الله بيتكما» فردت المرأة «وبيتكما أيضا».

وسط صمت عميق، رحت أتفحص الحجرة، مجيلاً نظري فيها، عدا عن الاريكتين. كان في الغرفة طاولة وأربعة مقاعد حولها وبالقرب من الموقد بضع كراسٍ ثلاثية الأرجل ولا شيء آخر. وعلى الحائط صورة لشاب يبدو مبتسماً، وإن كانت ملامح وجهه لا تدل على أنه إنسان مرح وطروب. ولكن الذي أثار عجبي هو وجود صورة ثانية له داخل الإطار ذاته، ولكن بوضعية مختلفة. لم أنتبه إلى أن صاحبي البيت ما يزالان واقفين ينظران إلينا وكأنهما يتساءلان من نحن ومن نكون. نفذ صبر المرأة فقالت: هل لنا أن نعرف من أنتما؟

ـ أنا سوسويا وهذه خاتيا، والحقيقة أننا ذاهبان لاستبدال بعض الملابس بالذرة، وأدركنا الليل في الطريق لذا نسألكما أن تسمحا لنا بالمبيت هذه الليلة وغداً صباحاً نتابع سيرنا.

ـ أنتما في بيتكما: أهلاً وسهلاً بكما، قالت المرأة.

ـ أية ملابس تريدان استبدالها؟ قال الرجل.

إلا أن المرأة قاطعته قائلة «ليس هذا وقت البيع والشراء.. لا شك أن ضيفينا جائعان».

ـ ومن منعك من تحضير الفطائر. أم أن الحال تغير، وصار عليّ إعدادها؟

تقدم الرجل وأخرج المعطف والحذاء من الخرج، وأخذ يتفحص كل قطعة على حدة بتمعن ورقة. ارتدى المعطف وزرره ووقف قبالة

Twitter: @alqareah

المرآة على الحائط، وشرع يتأمل نفسه، ويهز رأسه من حين لآخر، علامة الرضى والاستحسان، ثم خلعه بعناية ووضعه على الأريكة الثانية.

تقدم من الحذاء وحشر يمناه فيه ثم حشر الرجل اليسرى ووقف وأخذ يزرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً وهو ينظر إليه.

ـ حذاء رائع، يبدو أنه لم يلبس كثيراً...

ـ مرة واحدة أو اثنين على الأكثر. أجبت.

ـ وكم تريد ثمناً له؟

ـ عشرة أرطال من الذرة. وكررت خاتيا ما قلت وكأنها تؤكد على وحدة الرأي بيني وبينها.

ـ ثمن بخس لو كان هناك وفر في الذرة... قال هذا وهو يسحب رجليه من الحذاء. في هذه الأثناء دخلت زوجته ووضعت على الطاولة بعضاً من الجبنة الطازجة وفطيرة ذرة باردة وجرة من النبيذ. «تفضلا تناولا الطعام.. لا بد أنكما جائعان».

لم أبدِ أية ممانعة، فأمسكت يد خاتيا وقدتها إلى الطاولة وأجلستها على المقعد، والمرأة تراقب ما أفعل بانفعال واندهاش وتعجب وتهز رأسها أسفاً.

قدمت لخاتيا قطعة جبن وجزءاً من الفطيرة، كذلك قدح نبيذ، شربته وهي تقول: «عسى الخير يبقى مقيماً في دياركما».

Twitter: @alqareah

أحبت الزوجة أن تتعرف إلينا أكثر فتساءلت عن العلاقة القربى التي تربطنا.

ـ لا قرابة بيننا. قالت خاتيا. ومضت تقول: مجرد جيران أوفياء، وزملاء دراسة.

اندهش الإثنان معاً: وهل أنتِ أيضاً تتابعين الدراسة يا ابنتي؟

ـ نعم. أذهب كل صباح برفقة سوسويا وأعود مساءً برفقته أيضاً.

ـ وهل عيناكِ لا يسببان لكِ الإزعاج؟

ـ عيناي ليستا مريضتين، كل ما في الأمر أني لا أرى .

هتفت المرأة «عفوك ربي أيعقل أن تحرم ملاكاً كهذه ـ ووضعت المرأة رأس خاتيا على صدرها وقبلت شعرها ـ رؤية نور الشمس؟».

ـ لا يا سيدتي، فخاتيا ترى الشمس، وقد قال الطبيب أنه ما دامت ترى الشمس فهذا بشير شفاء من خلال عملية جراحية ولكن.. كما تعلمين أي حال نحن فيها.

نظر الرجل مندهشاً: أصحيح هذا؟

أجابت خاتيا: نعم.. في البدء لم أكن أرى الشمس ولكن منذ سنتين تقريباً صرت أراها. وحين تنتهي الحرب سيجري لي الطبيب عملية جراحية، أستعيد بعدها نظري وهكذا يصير بمقدوري رؤية سوسويا ورؤيتكما أيضاً.

Twitter: @alqareah

ـ ولكن كيف سمحت لكِ والدتكِ تحمل مشاق هذه الطريق؟

ـ الحقيقة أنه ليس لدي أم، فقد توفيت منذ زمن. أما أبي، فلا يخشى عليّ طالما أنا مع سوسويا.

وتدخلت المرأة، يبدو أنك تحبين سوسويا.

ـ لست وحدي من يحبه، فهو محبوب من الجميع.

وخيم بعض من الصمت، قطعه الرجل بالعودة للحديث عن الحذاء والمعطف، متسائلاً عن ثمن الحذاء طالباً مني التنازل بعض الشيء.

ـ لا تعتقد يا سوسويا أن عمك بابيلو ـ وهكذا عرفت أن اسمه بابيلو ـ رجل بلا ضمير، أنا أعرف أنه لولا حاجتك للذرة لما أقدمت على بيع هذا الحذاء الجيد، ولكن الذرة قليلة جداً هذه الأيام وأسعارها مرتفعة.

ـ وكم ستدفع ثمناً له؟

ـ سأعطيك مكيالاً واحداً..

تدخلت خاتيا، إجعله مكيالين. وتأكد يا عم بابيلو، أنه لولا الحاجة لما وافقت عمته على بيع الحذاء والمعطف.

ـ ليكن لك ما تريدين يا خاتيا، وماذا عن المعطف؟ هل ارتداه والدك كثيراً؟

ـ مرة واحدة ليس أكثر.

ـ وكم تريد ثمناً له؟

Twitter: @alqareah

ـ عشرون رطلاً..

ـ صدقني، إن أعطيتك نصف هذه القيمة لأمضيت شهراً جائعاً.. أتبيعه بعشرة أرطال؟

وأنزلت رأسي دلالة الموافقة.

ـ ولكن ماذا سيقول أبوك؟ سألني بابيلو.

ـ لن يعرف.

ـ هل هو على الجبهة؟

ـ لا..

ـ أوليس لك أب؟

ـ لا أعرف.

ـ ووالدة؟

ـ لا أعرفها.

ـ كيف هذا؟... ما الذي تعرفه إذن؟

ـ كل ما أعرفه أنهما اعتقلا منذ فترة طويلة. حتى أني لا أتذكرهما جيداً. قلت هذا وأنا أطوي المعطف وغيرت موضوع الحديث «سنرحل فجر الغد يا عم بابيلو».

ـ أعرف هذا يا بني، ثم طلب من زوجته تعبئة أكياسنا بالذرة وفقاً لما اتفقنا عليه.

ـ هل ترغب بشراء هذه البندقية؟

Twitter: @alqareah

ـ ولماذا؟.. فالطيور هاجرت بعيداً وكذلك العصافير.. على كلٍ دعني أراها.

ناولته البندقية وأخذ يتفحصها «وكم تريدْ ثمناً لها، إنها بندقية ممتازة».

ـ لا شيء قالت خاتيا، إنها لي.

ـ أما ترغبين في بيعها؟

ـ لا... لا أرغب في بيعها.. ولكن.

وقاطعها العم بابيلو «ولكن ماذا يا ابنتي، سوسويا عرضها للبيع».

ـ أعرف ذلك، ولكني أقدمها لك كهدية تعبيراً عن الشكرِ لاستضافتنا.

ـ وماذا سيقول لك والدك. قد يغضب منك؟

ـ لا أحد سيغضب مني، وسأكون جد مسرورة إذا قبلت هديتي.. وكذلك سيسر والدي..

نظر بابيلو إليّ بنظرات الإندهاش والتعجب.

ـ إنها بندقيتها ـ قلت ـ وهي تهديها لك، ولا شك لن تكون مسرورة إذا رفضت عرضها.

وأيدت خاتيا كلامي بحركة من رأسها، فتقدم بابيلو منها وقبلها على رأسها ودعا لها بالسعادة والهناء في الحياة. ثم طلب من زوجته أن تهيء لنا فراشين للنوم وأخبرها بسرور أن خاتيا أهدته البندقية.

Twitter: @alqareah

لاحظ بابيلو أني كثير النظر إلى الصورة المعلقة على الحائط كما لاحظ تعجبي.

ـ أهذا ابنك يا عم بابيلو؟ ما اسمه؟

رفع بابيلو رأسه ونظر إلى الصورة وعلى شفتيه ابتسامة حزينة وقال: عن أيهما تسأل؟

وقع سؤاله عليّ كالصاعقة «ولماذا تسخر مني يا عم بابيلو؟».

ـ ويحك سوسويا، أنا أسخر منك؟ طوال عشرين سنة وأنا لا أقدر على التمييز بينهما. إنهما توأم، كثيراً ما كنا نعاقب واحداً بجريره الآخر، حتى رحنا نعاقب الإثنين معاً، حتى لا نكون عاقبنا البريء وأفلت المذنب، أما عن آلاعيبهما في المدرسة فحدث ولا حرج. كان المعلمون يمتحونهما في وقت واحد، وكل واحد في غرفة مستقلة.

ـ أما كنتما قادرين على التمييز بينهما أبداً؟

ـ بلى، من خلال آثار الوحام على فخذ ناسيا، فنعرف أن هذا هو ناسيا والثاني هو باتو.

مسحت الزوجة الدمع عن خديها بيد مرتجفة وتنهدت من أعماق صدرها: معاً ذهبا إلى الحرب. وبعد شهر أرسلا لنا هذه الصورة التي ترونها، ومنذ ذلك الحين، لا علم ولا خبر. ثلاث سنوات، وأنا لا أنام إلا فيما ندر. وإن نمت أحلم بهما، أراهما مضرجين بالدم، فأستفيق كالمجنونة، وأبدأ بلطم رأسي ووجهي.

Twitter: @alqareah

مدّ بابيلو يده ووضعها على كتفها وأخذ يهديء من روعها ويخفف عنها: هناك ملايين الأبناء ذهبوا إلى هذه الحرب اللعينة يا عزيزتي، وليس ولدانا فقط، ومن ثم فهذا هو قدرنا، والأهم من يدري؟ لماذا نبكيهما ونحن لا نعرف عنهما شيئاً؟

وتدخلت خاتيا: تصبري، فلا شك سيعودان وتسران بهما، كما سر العم لوقا بعودة ابنه بعد ثلاث سنوات. لقد عاد منذ ثلاثة أيام.

تمنيت لو بإمكاني أن أصفعها. ولكني تمالكت نفسي ورحت أتساءل عن مدى قدرة خاتيا على اختراع الحكايات والقصص.

صاح العم بابيلو: وكيف عاد يا خاتيا؟

ـ عاد سيراً على قدميه.

وسألتها أنا: عمن تتحدثين يا خاتيا؟

ـ عن ألكسي ابن العم لوقا، ما بك يا سوسويا، هل فقدان الذرة من منزلكم أنساك هذا؟

مرة جديدة تمنيت لو بإمكاني أن أصفعها. فالعم لوقا تلقى خبر وفاة ابنه، لكن أناتولي أقنعه أن هذا الخبر عارٍ عن الصحة. يبدو أن خاتيا أكثر قدرة على ابتداع الحكايات من أناتولي.

ـ وهل تحدثتِ معه يا خاتيا؟ قال بابيلو وهو يفتح فمه واللهفة بادية على وجهه.

ـ نعم تحدثت إليه، ويقول إن سلاحاً جديداً أدخله السوفيات على أرض المعركة، غيّر مجراها.

Twitter: @alqareah

ـ وما هو هذا السلاح؟

ـ يطلقون عليه اسماً أنثويا «كاتيوشا» لا شيء يقاومه، إنه يهدم ويحرق في آن. ولكن هل تعرفون لماذا أطلقوا عليه إسماً أنثوياً؟

انتقلت الدهشة من العم بابيلو وزوجته إليّ وبت لا أعي ماذا أسمع، وصرت أتطلع بخاتيا وكأني ألتقيها لأول مرة: «لا... لماذا؟».

ـ «حتى يدرك هتلر أن نساءنا أهم من رجاله» وضحكنا كلنا معاً لهذا التفسير.

ـ وماذا أيضاً يا خاتيا؟

ـ وقال إن جيوش هتلر بدأت تتراجع أمام ضربات الجيش السوفياتي.. ومالت إليّ وقالت: أخبره يا سوسويا ما بك صامت هكذا؟

أحسست أن مصيبة حلت على رأسي، فأنا لا أمتلك قدرة التخيل واختراع الكلمات، لكن العم بابيلو حثني على القول إكراماً له ولزوجته وأبدى استعداده لإعطائي المزيد من الذرة.

ـ فعلاً كما تقول خاتيا.. حتى أن طائراتنا تقصف برلين الآن، وقريباً ستفتح جبهة ثانية.

ـ ومتى؟

ـ قريباً جداً. قالت خاتيا. فجيشنا اليوم يمتلك أسلحة جديدة فتاكة وأعدّ خطوط دفاع حصينة. ولهذا نادراً ما يسقط جنودنا

Twitter: @alqareah

قتلى، بسبب الخنادق والتحصينات. أما جنود هتلر اللعين، فقد لا يعود أحد منهم ليخبر أهله عن بسالة الجندي السوفياتي.

ضحكت سراً وقلت لنفسي، يبدو أن خاتيا، لا ترى الشمس وحسب. بل والتحصينات الدفاعية أيضاً. وتمنيت ألا تطلب مني مساعدتها في الحديث، لكن أمنيتي لم تتحقق إذ سرعان ما طلبت مني أن أخبر العم بابيلو عما سمعته من ألكسي.

ـ وماذا تقصدين؟

ـ تباً لك يا سوسويا.. أو لم يقل أن هناك المئات من الجورجيين كانوا في وحدته، وتحدث عن رفيق له طالما حدثه أن له أخاً توأماً لا أحد يميز بينهما ولهذا فرقوا بينهما فصار كل واحد في فرقة.

منذ صغري وأنا، كما كل أبناء الضيعة، أعتقد أن خاتيا هي أصدق البشر على الإطلاق. أما اليوم، فهي أكذبهم على الإطلاق. وأجزم أن التاريخ لم ولن يعرف أكذب منها.

ركعت العمة عند قدمي خاتيا «وماذا قال أيضاً؟ هل قال إنهما يتواصلان مع بعضهما، هل ذكر الأسماء؟».

صدقيني لم أعر اهتماماً للأسماء، أما بالنسبة للتواصل فقد ذكر ذلك، التفتت إليّ «هل ذكر أي إسم يا سوسويا؟».

ـ لا.. لا أتذكر ذلك أبداً.

ـ شكراً لله، ولك يا عذراء مريم، إن ولدي ما يزالان على قيد الحياة. أسمعت يا بابيلو؟ ولدانا.. ولدانا.

Twitter: @alqareah

و لم تتمكن المرأة أن تكمل حديثها، بل ارتمت على صدر زوجها الذي كان يقف كمن تجمد جسده، لا يد تتحرك ولا جفن يرف حتى عيناه كانتا مسمرتين بخاتيا وكأنه يتساءل «من اين أتت هذه الفتاة لتشبعنا كذباً...» لكنه في قرارة نفسه كان قد صدق كل كلمة سمعها ، «غداً سأذهب معكما لمقابلته».

وخيم صمت مريع علي وعلى خاتيا. وماذا سنقول الآن؟ لكن خاتيا استرجعت أنفاسها.

ـ ستكون ضيفاً على قلوبنا قبل بيوتنا يا عم بابيلو ولكن؟

وقاطعها العم بابيلو، ولكن ماذا؟

ـ أعتقد أنه عاد إلى الجبهة، فهو كان مجازاً ليومين فقط فكما تعرف المعارك ما تزال مستمرة.

إذن؟

وتدخلت أنا: سأكتب له وأرجوه الإجابة بأسرع ما يمكن، وتأكد ياعم بابيلو، لن أتوانى عن الذهاب بنفسي إلى حيث هو وسؤاله عنهما، ومن يدري قد ألتقي بأحدهما الذي هو رفيق ألكسي؟

كنت أحاول إنهاء الحديث الذي إن طال، قد يكتشفان مدى أكذوبة خاتيا ولا شك سيطردانا في هذا الوقت المتأخر من الليل. تقدما منا وقبلانا وتمنيا لنا أحلاماً سعيدة وخرجا من الغرفة، فركعت أنا ورحت أشكر الله على خلاصنا، وأرجوه ألا يعودا ثانية.

Twitter: @alqareah

عز النوم عليّ. فحكاية خاتيا، ذهبت بالنعاس وجاءت بالأرق والقلق، حتى خاتيا لم تتمكن من النوم، فطلبت مني أن تخرج إلى حديقة البيت والجلوس على العشب عند جذع شجرة من تلك الأشجار التي تحيط بالبيت.

كان ليلاً حزيرانياً دافئاً. السماء صافية، بمقدور أي كان عد نجومها. جلست خاتيا متكئة على جذع شجرة جوز واستلقيت أنا على العشب، جاعلاً من ركبتيها وسادة لرأسي. ورحت أحدق في السماء، فيما أسمع نباح الكلاب وصرير الجنادب ونقيق الضفادع؛ تخيلت عمتي مستلقية تحت شجرة الكرز في حديقتنا؛ تفكر بداتيكو حيناً وبأناتولي حيناً آخر.

تمنيت لو أن السماء تشبه المرآة وتعكس الأشياء التي تحتها، لكنت الآن أرى عمتي وعمتي تراني، ولكان بوسعي أن أرى جميع بلدان العالم وأتعرف على جميع الشعوب، لو كانت السماء كذلك لتعرف العالم كله على بعضه، وهكذا لا تنشب الحروب ولا تطول النزاعات، وهكذا أيضاً يكون بوسع الناس مساعدة بعضهم بعضاً، الله كم تكون الحياة رائعة، لو كانت السماء كذلك؟ واسترسلت بالخيال، لكن خاتيا قطعت شرودي «بماذا تفكر يا سوسويا؟».

ـ صدقيني أنا نفسي لا أعرف.

ـ كيف لا.. فيم كنت تفكر؟

ـ كنت أفكر بالسماء، أتمنى لو أنها مرآة تعكس ما تحتها.

ـ قل الحقيقة يا سوسويا.

Twitter: @alqareah

ـ آه يا خاتيا، كم يكون ذلك رائعاً؟ وعدت لأحدق بالسماء والنجوم والقمر.

ـ إنها ليلة دافئة. أليس كذلك يا سوسويا؟

ـ خاتيا، أتظنين أن بابيلو اقتنع بما رويته له؟

ـ ولماذا لا يقتنع؟ وهل كان سيصدقني لو قلت له أن ولديه استشهدا؟

ـ بربك كيف اخترعت كل هذه الأكاذيب.

ـ إسمع يا سوسويا، حتى الآن بابيلو وزوجته رافضان تصديق بأن ابنيهما توفيا، إذن فليصدقا أنهما على قيد الحياة.

ـ لنفرض أنهما قتلا؟

ـ أنا لم أقل إن الشقيقين هما ولداهما، كل ما فعلته أني تحدثت عن شقيقين توأم. ومن ثم، من يعرف قد يكون ولداهما أحياء. ولكن فيما كنت تفكر؟

ـ في أننا غداً سنكون في منزلنا وستضع لي عمتي فطيرة كبيرة كهذا القمر الذي في السماء.

ـ وما لون السماء يا سوسويا؟

ـ السماء زرقاء.

ـ وما هو اللون الأزرق؟

ـ إنه اللون السماوي. إنه لون جميل.

Twitter: @alqareah

ـ وكيف يكون الجميل يا سوسويا؟

استويت في جلستي وجعلت نفسي وجهاً لوجه معها. وأخذت أحدق بها. لست أدري كيف خطرت ناتاليا على بالي، وتذكرت ذاك اليوم الذي التقيتها به عند قبر بيجان.

الجميل يا خاتيا، هو من له عينان سماويتان كعينيكِ. وأهداب سود كهدبيك.

وضعت يدي على شعرها ورحت أداعبه، فابتسمت إبتسامة وضاءة تعبيراً عن سرورها لما أفعل، وتابعت أقول؛ الجميل يا خاتيا هو من له أنف مستقيم كأنفك وشفتان ممتلئتان كشفتيكِ، ومن إذا ابتسم تشرق الشمس من بين شفتيه، كما هي مشرقة الآن من بين شفتيكِ.

لاحظت ارتياحاً عند خاتيا لكلامي وأنها تتمنى لو أقول المزيد.

ـ وماذا عنك يا سوسويا؟ هل أنت جميل؟

ـ أنا؟... مثل القرد.

ـ مدت خاتيا يدها وراحت تتلمس وجهي، فأحسست بقشعريرة تسري في جسدي. وثانية تذكرت ناتاليا، غير أني رفضت الإستمرار في مثل هذه التخيلات والبقاء في الواقع، مع خاتيا.

ـ أنت أيضاً جميل يا سوسويا، ليس هذا وحسب، بل ولطيف أيضاً.

ـ أنا؟.. ومن قال ذلك؟

Twitter: @alqareah

ـ لا أحد، ولكن ثق يا سوسويا، إني أرى اثنين: أنت والشمس ولا شيء غيركما.

أنزلت يدي إلى كتفيها وجذبتها نحوي، دون أية ممانعة، رمت رأسها على ركبتي، فانحنيت فوقها وقبلت جبينها، فرايت على شفتيها ابتسامة أكثر وضوءاً من ابتسامتها الأولى، ثم قبلت عينيها، فشفتيها وتذكرت ما قالته ناتاليا، «إن أردت أن تمتلك المرأة قبّل عنقها برفق وحنان، ثم عد إلى شفتيها» وهكذا عملت بنصيحة ناتاليا، فأحسست بنار تسري في جسد خاتيا كما تسري في جسدي. وسمحت ليدي مداعبة جسدها دون أن تبدي اعتراضاً.

ـ أحبك يا خاتيا.

ـ وأنا أيضاً أحبك يا سوسويا.

عانقتها حتى التصق جسدانا، ووددت لو أعريها كما تعرت ناتاليا تلك الليلة التي زرتها فيها، غير أني أدركت أن ناتاليا هي ناتاليا، وخاتيا هي خاتيا. مع ناتاليا، كنت استجيب لرغباتها، أما مع خاتيا، فأنا أعبر عن أحاسيسي وعن مشاعري، مع خاتيا، أريد تفجير حبي، وكذلك تفعل خاتيا.

عدنا إلى الداخل، وتمدد كل منا على فراشه، وغرقت في بحر من التخيلات والتساؤلات: أيعقل أن أعرّف لون السماء بلون عيني خاتيا؟ ما عدت أرى شيئاً إلا خاتيا ولا أسمع شيئاً إلا صوت خاتيا وهي تقول «وأنا أحبك يا سوسويا» فأنا لا أرى سواها، وهي العمياء لا ترى إلا أنا والشمس. فعلاً كما قالت ناتاليا، القبلة هي تعبير عن

Twitter: @alqareah

الحب، وكلما كان الحب صادقاً، كلما شعر المتعانقان بلذة القبل.

استيقظت باكراً صباح اليوم التالي. كان ضوء الفجر ما يزال باهتاً. ارتديت ملابسي ومددت يدي لأوقظ خاتيا التي كانت ملاكاً نائماً يحشر راحتيه تحت رأسه وعلى شفتيه إبتسامة ملائكية.

ـ إنهضي يا خاتيا، قاربت الشمس أن تبزغ وعلينا العودة باكراً، ارتدي ثيابك فيما أنا أضع الذرة على ظهر الحمار.

ـ ولماذا تحدثني همساً؟

ـ لأن بابيلو وزوجته ما يزالان نائمين.

ـ وهل نرحل دون وداعهما وشكرهما؟

ـ مشوارنا طويل يا خاتيا، وعلينا قطعه سيراً على الأقدام فالحمار محمل بالذرة ولا يقوى على حمل أي منا فوق حمله، ولا يجوز إيقاظهما في هذه الساعة المبكرة.

بعد الإنتهاء من تحميل الذرة، أمسكت يدها ونزلنا إلى فناء الدار.

ـ آه أيها المراوغان؟ أهكذا ترحلان دون كلمة وداع؟

التفت إلى مصدر الصوت، فإذا العم بابيلو يقف على الشرفة، وهو ما يزال في ملابسه الداخلية.

ـ أهكذا ترحلان دون تناول طعام الفطور؟ ماذا ستقول الناس عني؟

ـ لا يا عم بابيلو، ولكن أردنا الرحيل باكراً، حتى نصل الضيعة

Twitter: @alqareah

قبل حلول الظلام. ونحن لكما شاكران على ما فعلتما لنا، فعلاً إنكما زوجان كريمان.

ـ أقنعتني.. إرحلا.

ـ وداعاً يا عم بابيلو، وإلى اللقاء فمن يدري؟

ـ انتظر لحظة يا سوسويا، قال بابيلو ودخل إلى الغرفة ثم عاد مسرعاً، ونزل الدرج، وبيده المعطف والحذاء لم أستطع أن أتفوه بكلمة، شعرت بالجفاف بفمي.

ـ هذا حذاؤك يا ولدي، وهذا المعطف أيضاً.

ـ ولماذا ياعم بابيلو؟

ـ لا أريدهما، إنهما لك، فقط سأحتفظ بالبندقية لأنها هدية من خاتيا.

دبت القشعريرة في جسدي. هذا يعني إما العودة بلا ذرة أو البحث عمن يشتريهما مني.

ـ وهل ترى أن الثمن..

لم يسمح لي بإكمال كلامي: لا يا ولدي ليس الثمن هو السبب، فقط أنا لست بحاجة لهما.

تقدمت من الحمار ورحت أرفع كيس الذرة عنه، إلا أن بابيلو منعني من ذلك.

ـ ماذا تفعل يا سوسويا؟

Twitter: @alqareah

ـ أعيد الذرة، فأنت لا تريد الإحتفاظ بالحذاء والمعطف.

ـ وما علاقة هذا بالذرة؟ لن استرجعها حتى لو قتلتني.

ـ أنا لست شحاذاً يا عم بابيلو.

ـ ماذا؟

ـ إن أنت لا تريد الحذاء والمعطف فأنا لا أريد الذرة، فأنا لست شحاذاً ولا متسولاً.

تقدم بابيلو ووضع يده على رأسي وقبّل جبهتي.

ـ ماذا تقول يا سوسويا؟ أحقاً تعني ما تقول؟ من علمك أن تتحدث هكذا إلى الذين هم أكبر منك سناً؟

إن قدمت لك بعض الذرة، فهل يعني أني أحسن إليك؟ فكما أنا قبلت هدية خاتيا، عليك أن تقبل هديتي. نظر نحو خاتيا وتابع يقول: أسمعتِ؟ أية تفاهات هذه التي ينطق بها صديقك سوسويا؟ لو كنت مكانكِ لأقلعت عن حبه.

لم أجد بداً من البكاء، فتقدم مني وأخذني بين ذراعيه «ستكبر يا سوسويا، وستكون بحاجة لهذا الحذاء وللمعطف أيضا. سأدعوكما أنت وخاتيا لحضور زفاف أحد ولدي بعد عودتهما إرحلا الآن بعناية الله، فأنا عندي من الذرة ما يكفي ثلاث عائلات».

أدركت أني واقف بين كاذبين، خاتيا وبابيلو. الأولى تتحدث عن العائدين من الجبهة، والثاني يتحدث عن وفر في الذرة، وأنا على يقين، أنه قد لا يكون عنده ما يكفيه حتى موسم الحصاد.

Twitter: @alqareah

ـ وداعاً يا عم بابيلو، كن على ثقة سنكون أول المهنئين.

تقدمت خاتيا ومدت ذراعها وأخذت تتلمس يده وصافحته مودعة.

شيعنا العم بابيلو بنظراته، حتى اختفينا عن أنظاره بعد المنعطف. مضينا معاً، وكلما خطونا خطوة، كلما اتضحت معالم بيوت الضيعة وكذلك ترتفع أعمدة الدخان من مداخن البيوت، كان علينا الإسراع في الخطى حتى نصل قبيل الغروب، ولا شك ستكون عمتي بانتظارنا وعلى شفتيها ألف سؤال وسؤال.

إنه طريق وعر قالت خاتيا.

ـ نعم... لكنه الطريق الذي سيسلكه العائدون من الجبهة إما أصحاء معافون، أو معاقون، ومنهم من سيعود محمولاً والأوسخة تتدلى على نعوشهم.

ـ ثلاث سنوات يا سوسويا.. ما رأيك هل صدقك العم بابيلو أن هتلر يتقهقر أمام تقدم جيوشنا؟

ـ صدقني هو ، لكن انا لم أصدق نفسي.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

16

بُعيد الظهر، وصلنا إلى نهر سوبسا. كان التعب قد أنهك كاتيا؛ فقصدنا صخرة حورية البحر للإستراحة قليلاً، قبل متابعة طريق العودة إلى الضيعة.

خلعت خاتيا حذاءها ووضعت قدميها في الماء وأخذت تحدق بالبعيد «ما تزال الشمس في السماء. أليس كذلك يا سوسويا؟».

سؤال وقع عليّ كالصاعقة: فعلاً، إنها لم تغب بعد، إنها تميل إلى الغروب. ولكن، أما ترين غير الشمس يا خاتيا؟

ـ أرى شيئاً يصدر ألواناً مشعة كما أسمعكم تقولون.

أخذتها بين ذراعي وضممتها إلى صدري. لست أدري لماذا تذكرت ناتاليا. أيعقل هذا؟ إنها تستحوذ على كل تفكيري. كلما وضعت يدي على كتف خاتيا، أتذكرها، وأتذكر كلماتها التي تفوهت بها على هذه الصخرة، أتذكر كيف غمرتني وراحت تقبلني، أتذكر تلك الليلة المجنونة التي أمضيت نصفها في سريرها. أتذكر ذاك الجسد العاري، أتذكر قبلاتها. وأتذكر كيف التحم جسدانا، حتى أصبحنا جسداً واحداً، وأتذكر قولها «ما تزال غرا في

Twitter: @alqareah

ممارسة الحب. سأعلمك كيف تمارسه بكل أحاسيسك، سألهب جسدك، حتى أنسيك العالم كله فلا تتصور وتتذكر إلا أنا...» أيعقل أن أنسى خاتيا؟».

ـ ما بك؟ قالت خاتيا. فأنت لست معي.

ـ لا... أبداً، إنه التعب أرهقني.. ما رأيك لو نتابع المسير حتى نصل إلى الضيعة قبل غروب الشمس؟

إنتعلت حذاءها، وأمسكت يدي. فأحسست بدفء غير إعتيادي يسري في جسدي، ساعدتها على النهوض، ومضينا في طريقنا نحو الضيعة.

كانت الشمس، قد أخذت تختفي وراء الجبال. الأشجار على القمم، تبدو وكأنه معلقة بين الأرض والسماء.

عمتي كيتو، تجلس على الدرج حاضنة ركبتيها بيدها، وعيناها زائغتان في الطريق، ما إن لمحتنا، حتى قفزت من مكانها وركضت نحونا، لم تكن تدري من تغمر منا أولاً.. أنا أم خاتيا؟ كان لقاء أشبه بلقاء بعد غياب سنين.

ـ ما بك يا عمتي، لم يمضِ على غيابي سوى يومين، فكيف لو كنت عائداً من الجبهة؟

ـ سوسويا.. أنت كل وجودي.

ـ وأنا لا أعني لك شيئاً يا كيتو؟ قالت خاتيا.

ـ سامحك الله يا خاتيا..

Twitter: @alqareah

وضعت يدي جول خصر عمتي وقلت «افرحي يا عمتي، أتيتك بذرة تكفي لسنة كاملة».

وخاتيا؟

ولخاتيا أيضاً؟

أنزلنا ما كان الحمار يحمله. فتعجبت عمتي لرؤية الحذاء والمعطف وتساءلت. وكيف أتيتما بالذرة إذن؟

إنها حكاية طويلة يا عمتي..

وتدخلت خاتيا وراحت تروي للعمة كيتو، ما جرى وكيف أقنعنا العم بابيلو أن ولديه ما يزالان أحياء وأنهما سيعودان إليه كما عاد ألكسي إبن العم لوقا.

وأكملت أنا «لست أدري كيف اخترعت خاتيا هذه الحكاية وحبكتها، حتى اقتنع العجوز بما روت والأنكى أنها كانت تطلب مني تأكيد ما تقول».

ـ ومن أخبركما بعودة ألكسي؟ تساءلت العمة.

ـ وصرخنا معاً، خاتيا وأنا ماذا« ماذا تقولين؟ عودة ألكسي؟ من أنت؟ عمتي أم أناتولي..؟»

ـ أنا كيتو وليس أناتولي. وإذا كان أناتولي قد أراد زرع الوهم في رأس العم لوقا وزوجته. فالوهم صار حقيقة..

أمسكت عمتي من كتفيها ورحت أهزها وأنا لا أعرف ماذا أقول. «أيعقل هذا؟ ولكن...».

Twitter: @alqareah

قاطعتني عمتي، «لا تقل شيئاً..». عاد ألكسي حياً سالماً و لم يعد وحده.

صاخت خاتيا.. «خذينا بحلمك يا عمة كيتو، وإبن من عاد معه؟».

ـ ليس إبن أحد، بل.. وصمتت عمتي وكأنها تريد إثارتنا أكثر فأكثر فصحت بأعلى صوتي. بل ماذا؟ بربك قولي

عاد وعادت برباره معه.

كادت خاتيا أن تقع أرضاً لكني أحطت خصرها بيدي وأعدت لها توازنها. لكنها استمرت تتمتم «ومتى كانت الكذبة حقيقة؟».

أمسكت خاتيا من يدها وأجلستها على الدرج، واتخذت لي مكاناً إلى جانبها، دون أن نتفوه بأية كلمة. حبسنا أنفاسنا. فلا عمتي تمزح، ولا نحن قادران على تصديق ما نسمع. أمضينا ليلاً بكامله تخترع القصة تلو القصة عن عودة ألكسي، حتى أقنعنا العم بابيلو بما كنا نخترع، وحين اقتنع كدنا نهزأ منه لأنه صدقنا. ولكن، من يدري، قد يعور ولداه كما عاد ألكسي. ولكن اين التقى لبرباره؟

ـ عمتي.. أرجوكِ.. ألكسي عاد؟ أليس كذلك؟

ـ نعم عاد..ولكن ما بكما...؟ تبدوان كمن قُطع لسانهما؟ أولستما من أخبرتما ذاك الرجل بعودة ألكسي؟

ـ نحن..؟ صرخنا معاً، أنا وخاتيا.. كنا نكذب عليه، نعم كنا نكذب، ولكن، تابعت خاتيا، أحببت أن أزرع أملاً في حياة تلك العائلة لا أكثر ولا أقل. حتى أنه صمم على دعوتنا لحضور زفافهما..

Twitter: @alqareah

ـ المهم.. برباره. تساءلت أنا.. كيف عادت؟

ـ عادت معه، دخلا الضيعة يداً بيد، وتوجها فوراً إلى بيت عمها.

ـ أين إلتقيا؟

ـ في المستشفى.

ـ أي مستشفى؟

ـ حيث كانت تعمل برباره.

ـ ضربت رأسي بيدي. برباره كانت تعمل في المستشفى. كذبة صارت حقيقة، وعودة ألكسي كذبة صارت حقيقة.

حدقت بعمتي مندهشاً لما أسمع، كانت عيناي تتكلمان. تعبران عن ذهولي.

ـ ما بك يا سوسويا؟ أولست أنت من أخبر الضيعة أن برباره تعمل في المستشفى الميداني؟

ـ أنا؟..

ـ نعم...في الطاحونة.

ـ صدقيني عمتي، لا أنكر أني قلت هذا.. غير أني قلته لأتباهى أني أعرف.. أما الحقيقة. لم أكن أعرف أين هي.

وصاحت خاتيا أكاذيب تتحول إلى حقائق من يدري قد يكون داتيكو صادقاً فيما قال.

ـ وماذا قال داتيكو؟ تساءلت عمتي.

Twitter: @alqareah

ـ ألا تعرفين؟

ـ لا.. كل ما أعرفه أنه هارب وأنه إنسان قذر خان وطنه.

ـ قال إنه مخابرات..

ـ ماذا؟ صاحت عمتي وأين قال هذا؟ ومن أخبرك..

ـ قال هذا في سوق الضيعة المجاورة. هذا ما قالته الخالة مينا، لكنها لم تصدقه.. ولا أحد كان مستعداً لتصديق هذا.

ـ حتى الآن لست مستعدة على تصديق هذا، ولكن، ما علاقة حكاية داتيكو بألكسي وبربارة.

ـ «الأكاذيب». قلت أنا وتابعت، أناتولي كذب على العم لوقا وأوهمه أن ابنه حي وسيعود يوماً، وها هو عاد.. ونحن، خاتيا وأنا، إعتقدنا أننا كنا نكذب على العم بابيلو حين أخبرناه عن عودة ألكسي.. وأنا كذبت على النسوة في الطاحونة وأخبرتهن أن برباره تعمل في مستشفى ميداني، وها هي فعلاً كانت تعمل في مستشفى ميداني.

تدخلت خاتيا: وليس في أي مستشفى ميداني، بل حيث كان يعالج ألكسي..

نظرت إلى عمتي، فإذا بالدموع تبلل خديها. أدركت أنها تبكي فرحاً وحزناً في آن. تبكي فرحاً، لأن كلام خاتيا زرع أملاً في صدرها. من يدري فقد يكون داتيكو رجل مخابرات فعلاً وادعى أنه هارب. وتبكي حزناً، لأنها فقدت إثنين داتيكو وأناتولي.. ولكن.. قلت هذا بصوت مسموع دون إرادة في...

Twitter: @alqareah

ولكن ماذا؟ صاحت عمتي.

ـ ولكن... لو كان داتيكو هارباً من الخدمة، فهل يسمح لنفسه بالظهور بين الناس؟ في الأسواق العامة؟ في الطاحونة؟

ـ ماذا تقصد يا سوسويا قالت خاتيا.

ـ لا شيء. مجرد تساؤلات.. فوق هذا.. من أين جاء بالذرة؟ جاء إلى الطاحونة وعلى ظهره كيس ذرة، رفض بيغلار استقباله وطحن الذرة. فقال أنا لست بحاجة إليها، هناك من هم بحاجة فوزع هذه الذرة عليهم. وقبل أن يخرج ويختفي في العتمة. قال لي «بلغ تحياتي لعمتك.. قل لها إني أحبها ولن أنساها».

أحنت عمتي رأسها وهي تحتضن ركبتيها بيديها، ولم تتفوه بأية كلمة.

هبت نسمة ريح باردة، ذكرتنا أنه علينا الدخول إلى المنزل. وذكرتني أنا، بشكل خاص، أن عليّ إيصال خاتيا إلى بيتها.

في الطريق إلى بيت خاتيا، كان الصمت مخيماً علينا، لا صوت إلا صوت وقع خطواتنا. وكأننا أضربنا عن الكلام. كنت أتمنى لو تتفوه خاتيا، حتى ولو بكلمة واحدة...

ما إن دخلنا فناء المنزل حتى استقبلنا والدها مرحباً بنا بفرح عظيم شاكراً الله على عودتنا، وأبلغ خاتيا، أن غداً سيذهبان لزيارة الطبيب وقد يجري لها العملية.

غمرتني خاتيا، وأجهشت بالبكاء...

ـ ما بك خاتيا؟ ثقي أنك ستعودين بخير، ولن تكوني بحاجة لي.

Twitter: @alqareah

لن تبصري الشمس فقط، بل ستبصرين كل شيء، ستريننى، سترين والدك وعمتي، سترين أبناء الضيعة كلهم، سترين الأشجار والأزهار، وسترين، أن لون السماء مثل لون الماء كلون عينيك. وسنذهب إلى الجامعة معاً.

ـ رويدك سوسويا.. انتظر حتى تنتهي الحرب أولاً.

ـ الحرب انتهت يا ابنتي، جيشنا السوفياتي وصل إلى أطراف برلين. ولن تمر أيام إلا ويكون دخلناها ويكون هتلر قد انتهى..

ـ وكيف عرفت هذا؟

ـ قرأنا هذا اليوم في الصحيفة ..

ـ إذن، قريباً يعود الجميع.. جميع الذين ما يزالون أحياء. منهم من يعود وعلى صدره الأوسمة، ومنهم من سيعود على عكازين.. والكل سيتحدث عن الحرب وويلاتها، عن بطولات الجيش السوفياتي، وسيجتمع الناس حولهم يستمعون إليهم.

ـ ثلاث سنوات ونصف مرت على بداية هذه الحرب اللعينة، هذه الحرب التي أعلنها الملعون إبن الملعون هتلر.

في طريق العودة، عرجت إلى منزل العم لوقا الذي ما إن رآني حتى أخذني بين ذراعيه والدموع تبلل وجنتيه.

عانقت ألكسي وكذلك عانقت برباره. وراح ألكسي يروي لنا ما عانى، وما رأى. حدثنا عن بطولات هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة. لكنه تحدث كثيراً عن برباره، وكيف كانت دائماً إلى جانبه دون أن تعرف أنه هو.

Twitter: @alqareah

دفعني الفضول للسؤال عن داتيكو، إذ قلت لنفسي، لربما يكون ألكسي يعرف شيئاً. يطمئن قلب عمتي، لكن الجواب لم يكن كما كنت أتوقع. كل ما أخبر به ألكسي، أنه أمضى معه نحواً من ستة أشهر، ثم قيل لهم في المعسكر أن داتيكو أصيب إصابة بالغة ونقل إلى المستشفى دون تحديد أي مستشفى، ومنذ ذلك التاريخ لم نعد نعرف شيئاً عنه.

وتدخل العم لوقا شاتماً داتيكو على أساس أنه هارب وخائن، الأمر الذي أثار استغراب ألكسي.

في المنزل، كانت عمتي تقف أمام المرآة. لأول مرة أراها تقف هذه الوقفة. يبدو أنها لم تنتبه لوجودي، فتابعت، تمرر يديها على خديها، تقرب المصباح من المرآة حيناً، وتبعده حيناً آخر.

لأول مرة، أرى جسد عمتي يتمايل هكذا، وكأنها صبية عاشقة، على شفتيها ترتسم إبتسامة شاحبة. أدركت أنها بدأت تعي أهمية تقدمها في العمر. وما يتركه من آثار على نفسيتها وجمالها.

ـ ما هذا الجمال يا عمتي؟

فوجئت بوجودي، فارتعش جسدها، واحمرت وجنتاها خجلاً. تقدمت منها، أخذتها بين ذراعي، قبلت جبينها «ما تزالين جميلة يا كيتو» ما تزالين تشبهين صورة العذراء مريم المخبأة في قعر الصندوق أتعرفين هذا؟

ابتسمت ابتسامة صفراء «أنا يا سوسويا؟ لماذا تجاملني؟».

ـ صدقيني أنا لا أجاملك، أنتِ أجمل من ناتاليا ومن خاتيا،

Twitter: @alqareah

وقريباً، إن لم يعد داتيكو، فسيعود أناتولي، وترتدين الثوب الأبيض.

ـ انشرحت أسارير وجهها، وشدتني إلى صدرها. وأشبعتني تقبيلاً.. وأنت...؟

ـ أنا...؟ ما بي؟... قريباً، شهر أو شهران ليس أكثر ستستعيد خاتيا نظرها ولا تعود بحاجة إلي، وانصرف كلياً لمتابعة داراستي الجامعية، وهذا يعني أني مجبر على أن أكون بعيداً عنك وأن أتكل على نفسي.

ـ ماذا أخبرك ألكسي عن..

ـ وقاطعتها: تعجب مما نقول عن داتيكو وأثنى على بطولاته واستبساله. إذن،

ـ إذن ماذا؟

ـ إذن، قد لا يكون هارباً.

ـ أتعني أنه قد يكون فعلاً رجل مخابرات؟

ـ أعتقد ذلك، فالجندي الهارب لا يزور أحداً، لا يظهر علناً في الأسواق العامة، ولا يحصد موسم الذرة ويأتي به إلى الطاحونة...

غيرت عمتي مجرى الحديث «لقد أعددت فطيرة، ما تزال ساخنة».

ـ شكراً عمتي.. هل سترافقينني صباح غد لوداع خاتيا، إنها ذاهبة لزيارة الطبيب الذي سيجري لها العملية.

ـ وهل تعتقد أني لن أفعل؟

Twitter: @alqareah

17

في ساحة الضيعة تحلق العائدون، كل يروي قصة عن معركة ما، أو يحدث عن مغامرة عاطفية، حتى في الحرب. حتى على خط النار، يبقى الإنسان إنساناً ويبقى بحاجة للحب والحنان.

كثيرون، هم العائدون من معركة برلين، أو من معركة تحرير روستوف على نهر الدون، وكلهم يسترسلون في الحديث. ليس عن المعارك وحسب، إنما عن المشاعر والأحاسيس. فالجندي في المعركة هو إما قاتل أو مقتولاً، القاتل للأعداء بطل، والمقتول شهيد. والإثنان مكرمان معززان في نظر الوطن والمواطن.

من بعيد أطل ألكسي قادماً وبرباره إلى جانبه وهو ينشد:

«ها أنا عدت يا حبيبتي

يا ذات العينين السود

عدت حاملاً رأس هتلر على يدي

ها أنا عدت يا حبيبتي».

وما إن وصل، حتى تحلق الجميع وراحوا يرقصون وينشدون.

Twitter: @alqareah

يا هتلر نحن إليك أتون

فافتح لنا أبواب برلين

نحن السوفيات.. نحن السوفيات

لسنا بولندا ولا هولندا

فافتح لنا أبواب برلين

في المقابل كانت الصبايا تنشد

حبيبي من الحرب عائد

وأنا ما أزال أحبه

حبيبي هو حبيبي

فقد أهداني رأس هتلر.

الكل في فرح، الكل يرقص ويغني، إلا عمتي وأنا. عمتي! ذهب حبيبها و لم يعد بعد، وأنا أنتظر عودة خاتيا، كان يجب أن تعود. منذ شهر ونيف ذهبت، وحتى الآن لا علم عنها ولا خبر. إني مشتاق لسماع صوتها. للمسة يدها، لحركاتها. كل ليلة أحلم بها تعزق الذرة، تكنس، تغسل، تذهب إلى المدرسة، من يدري فقد تكون استعادت نظرها؟

بُعيد الظهر قصدت قبر بيجان، نزعت العشب من حوله ثم جلست ورحت أناجيه.

«مرحباً يا بيجان.. هذا أنا سوسويا، أعتذر منك. منذ وقت

Twitter: @alqareah

طويل لم آتِ لزيارتك، وها هو السرخس نما حتى غطى المساحات وها هي الوردة التي زرعتها خاتيا أزهرت.. لا شك أنت ترغب بمعرفة كل شيء.

أولاً انتهت الحرب يا بيجان.. نعم انتهت الحرب يا بيجان، ودخل جيشنا ساحة برلين، وعاد الجنود برأس هتلر. عاد ألكسي ابن العم لوقا وقريباً سيتزوج من برباره، كذلك عاد ميخائيل، كثيرون عادوا. صار الملح متوفراً في الدكاكين وكذلك الصابون والأرز والسكر: كل شيء صار متوفراً، حتى الفرح، إلا عند عمتي. لقد رحل أناتولي، واليوم، يقولون أن داتيكو.. نعم داتيكو الذي قتلك، ليس خائناً ولا هارباً من الخدمة. بل هو بطل، لكنه حتى الآن لم يعد.

يبقى شيء مهم ستفرح به، لقد ذهبت خاتيا لإجراء العملية، وقد تبصر النور.. أنا أحبها يا بيجان وسأتزوجها.. سأقيم حفلة زفاف كبيرة، سأدعو أهل الضيعة بيتاً بيتاً، وبعد الزفاف سنأتي معاً، خاتيا وأنا، سنأتي لزيارتك. لا أنا قادر على العيش بدونها ولا هي كذلك. أحبها بجنون، كما أنت أحببت مينودورا.

أما عمتي فحائرة، تنتظر رسالة من أناتولي أو عودته. وبالوقت ذاته تتمنى أن يكون داتيكو بطلاً. في هذه، سنعتذر منك يا بيجان. هل تسمح لها أن تتزوج منه أم أنك تفضل أناتولي؟ ولكن يبدو أن أناتولي ذهب ولن يعود. بعد شهرين ليس أكثر ستكون عمتي وحيدة، أنا سألتحق في معهد الطب وسأقيم هناك، وإن لم تستعد خاتيا نظرها، سأصبح طبيب عيون،

Twitter: @alqareah

وأجري لها العملية الجراحية، أنا سأعيد لها نظرها.

ـ ما بك هل أصابك مسّ من الجنون، مع من تتحدث؟ سمعت صوتاً مألوفاً، التفت إليه فإذا به العم غيراسيم.

ـ أهلاً عم غيراسيم.

ـ ماذا تفعل هنا؟ ومع من تتحدث.

ـ إني أحادث بيجان يا عم غيراسيم. أخبرته أن الحرب انتهت.

ـ إنهض وأسرع إلى الضيعة، لقد عادت خاتيا.

ـ من؟ تساءلت باندهاش، وهل استعادت نظرها؟

ـ أسرع.. أسرع.

نهضت كالمجنون ورحت أعدو باتجاه الضيعة، وفي رأسي ألف سؤال وسؤال: هل استعادت نظرها؟ ليس هماً.. فأنا سأعيد إليها نظرها، ولن أتخلى عنها ولن أتزوج غيرها.

لست أدري كيف وصلت إلى منزل العم بيساريون. خاتيا تحت شجرة الكرز. لقد تعودت الجلوس تحت هذه الشجرة. أحسست أن قلبي سيقفز من صدري ليسبقني إليها. من بعيد صرخت خا... خا...تيا.

التفتت إلي و لم تتحرك من مكانها.. أيقنت أن العملية لم تنجح. تقدمت منها وغمرتها، شددتها إلى صدري، فيما والدها يراقبنا «وأخيراً عدت يا خاتيا.. أنا جد مشتاق إليك».

ـ وأنا كذلك يا سوسويا.

Twitter: @alqareah

كان العم بيساريون حاني الرأس، مغمض العينين.

ـ ما الأمر يا عمر بيساريون؟ لماذا أنت هكذا؟

ـ خاتيا يا سوسويا.

ـ وما بها خاتيا؟

ـ قالوا أن أعود في الربيع لإجراء عملية ثانية.

أحسست بالفرحة تختفي.. مسكينة خاتيا.. خاب أملها وعليها الإنتظار مجدداً.

ـ لا عليك يا حبيبتي.. فالربيع سرعان ما سيأتي.

ـ اجلس قربي يا سوسويا، أم أنك لن تفعل؟

ـ ما الذي تتفوهين به؟ سأبقى بقربك إلى مدى العمر، وإن أتى الربيع أو لم يأتِ.

جلست إلى جانبها ويدها بين يدي، وعيناي تحدقان بالوجه الملائكي، بالعينين الزرقاوين بالشعر الأسود المنسدل على كتفيها. لاحظت ابتسامة غريبة على شفتيها.

ـ أتذكر يا سوسويا؟

ـ أذكر ماذا يا خاتيا؟

ـ أتذكر يوم كنا نجلس على صخرة حورية البحر؟

ـ نعم.. وماذا أيضاً؟

ـ يومها.. سألتك ما لون الماء، فقلت لي من لون السماء،

Twitter: @alqareah

وسألتك ما لون السماء، فقلت لي كلون عينيكِ يا خاتيا.

ـ نعم أذكر هذا.. وأذكر أني قلت «عيناكِ زرقاوان وشعرك أسود، وأنك أجمل فتاة. وحين سألتني عني هل أنا جميل أجبتكِ بأني أشبه بقرد».

ضحكت خاتيا، وشاركها والدها الضحك وهو يتساءل «أصحيح يا خاتيا أنه يشبه القرد؟».

ـ لا يا والدي، إنه لا يشبه القرد الذي رأيته في حديقة الحيوانات في المدينة، بل القرد يشبهه.

ارتعش جسدي.. لم أعد قادراً، لا على الحركة ولا على النطق كل ما فعلته أني سمرت عيني عليها وأنا غير مصدق ما أسمع. حتى أني طلبت أن تعيد ما قالت وجاء جوابها «وأنت أجمل فتى في العالم يا سوسويا.. أنت قرد».

حملتها بين ذراعي ورحت أمرجحها وكأنها طفلة صغيرة.

ـ نعم أنت أجمل قرد يا سوسويا.

ـ تعالي.. تعالي، وسحبتها بيدها نحو الزقاق باتجاه ساحة الضيعة.

كان ليلي أحلاماً سكرى، لم أنم.. كانت خاتيا إلى جانبي ننظر إلى بعضنا البعض بصمت رهيب وعمتي على سريرها، تتقلب من حين لآخر وكأن هناك عداوة بينها وبين النوم.

ـ ما بك عمتي؟

Twitter: @alqareah

ـ لا شيء يا سوسويا، لست أدري لماذا أنا خائفة.

ـ ولما تخافين...

ـ قريباً جداً ويبزغ الفجر يا عمة كيتو، قالت خاتيا.

ـ إنه أطول ليل في حياتي.

فجأة سمعنا وقع أقدام على الدرج، حبسنا أنفاسنا، خاتيا التصقت بي أما عمتي فجلست في سريرها، ورحنا نصغي..

لم نعد نسمع شيئاً، وفجأة قرع الباب فصاحت عمتي «إنه النذل، لا يأتي إلا فجرا».

تجمدت مكاني «والله لن أدعه إلا جثة هامدة».

ـ من الطارق؟ صرخت عمتي.

ـ أنا ولا أحد غيري يا كيتو..

ـ فعلاً إنه داتيكو.

ـ وماذا تريد يا أيها النذل؟ هل جئتني برأس هتلر كما فعل غيرك.

ـ افتحي يا كيتو وسترين رأس هتلر بين يدي.. افتح يا سوسويا، فأنا لست هارباً ولا خائناً ولا مجرماً.

نظرنا إلى بعضنا والصمت سيد الموقف.

ـ على فكرة تهاني لخاتيا. وزاد من قرعه على الباب.

لست أدري كيف استجمعت قواي وتوجهت نحو الباب.

Twitter: @alqareah

فتحت الباب، فإذا بي أمام داتيكو الذي عرفته سابقاً، إنما يرتدي بذة عسكرية والأوسمة تغطي صدره. مد يده وصافحني بحرارة واتجه نحو عمتي والإبتسامة على شفتيه: ها أنا يا كيتو أطلب يدك، لتكوني زوجة النقيب داتيكو.

كاد يغمى على عمتي وهي تعانقه وتقول «أنا عروسة النقيب زائر الفجر».

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

زائر الفجر

عند الصباح يتلون الشفق بلون ذهبي، والشمس تتهادى مختالة في صعودها نحو كبد السماء. وعند الغروب يتلون باللون القرمزي، فيبدو وكأن الشمس حزينة لوداعها من كانت تشرق عليهم.

كنت مستلقياً على العشب الأخضر في فناء المنزل، أراقب غروب الشمس حين غط سرب من عصفور الشوك على السياج المحيط بالحديقة غير آبه لوجودي، أخذ يغرد، أو قل يزغرد، وكأنه جوقة نسائية في عرس قروي. سمعت عمتي زغردة العصافير فخرجت من المنزل على رؤوس أصابعها، وجلست على حافة السطيحة حاضنة ركبتيها بيديها وعيناها شاردتان في السماء حيناً وفي الزقاق المؤدي إلى المنزل حيناً آخر، وكأنها تنتظر قدوم أحد تأخر بقدومه. ولما لا؟ فهي رغم أنها في العقد الثالث من العمر، ما تزال تبدو كصورة العذراء مريم التي يخبئها جدي رحمه الله في قعر صندوق خشبي حتى لا يراها أحد. أفنت عمتي ما مضى من عمرها وهي تعتني بي دون إهمال واجباتها كمدرسة للغة الإنكليزية في ثانوية القرية.

رويداً رويداً أخذ لون الشمس يتحول إلى نحاسي وهّاج وبدت الأشجار على رؤوس القمم، وكأنها معلقة في الفضاء، أو كأنها تتحدى الريح والعواصف. تعجبت لصمتها فأردت قطع هذا السكون.

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان - بلوك ب طابق3 - شارع الكويت - المنارة - بيروت 2036 6308
لبنان - تلفاكس: 009611-740110 E-Mail: alkhayal@inco.com.lb
9 783011 931392